نجمية الصادق التليسي

طرابلس في نصوص عربية وأوربية





حسن ابراهيم الحبيشي

طرابلس
في نصوص عربية وأوربية

نجمية الصادق التليسي

طرابلس في نصوص عربية وأوربية

مراجعة

الدكتور عماد الدين غانم



إعداد: نجـمية الصادق التليسي

مراجعة: الدكتور عماد الدين غانم

طرابلس في نصوص عربية وأوربية

الطبعة الأولى : 2018 م

رقم الإيداع المحلي: 2018/331

رقم الإيداع الدولي: 9789959-25-919-6

وزارة الثقافة والمجتمع المدني - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

طرابلس

في نصوص عربية وأوربية

إعداد: نجمية الصادق التليسي

مراجعة / د. عماد الدين غانم / د محمد الأعور

إن طرابلس بموقعها المتميز متوسطةً الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط وبمواجهتها لقسم كبير من شواطئ أوربا المتوسطية وبمينائها العميق المتميز بحماية لا تتوفر إلا في القليل من مواني الشمال الأفريقي، وبقربها النسبي من جوف القارة الأفريقية ومراكزها الحيوية، وبموضعها الذي تزينه واحة واسعة وارفة الظلال وفيرة المياه القريبة من سطح الأرض وبعطائها المديد والمستمر على مدى ثلاثة آلاف عام كانت خلالها مدينة مركزية على صغر حجمها بالنسبة للوظائف التي ما انفكت تنهض بها، والتي اجتذبت دوماً العديد من العناصر من بيئيات حضارية أخرى افريقية وأوربية وأفسحت لهم المجال التعامل دون تمييز مع أبنائها والأخذ والعطاء. ومثلما كانت صلة وصل مابين أوربا وأفريقيا ومنطلق ونهاية طريق أو طرق القوافل المتوجهة إلى بلدان ما وراء الصحراء حاملة معها المنتجات المحلية والأوربية والأفريقية ومسوقة لها فإنها كانت محطة رئيسية على طريق الحج في حركة سنوية دائبة مابين المغرب العربي والديار المقدسة. كل هذا زاد من أعداد الذين يفدون إلى طرابلس ومن بينهم العلماء والمهتمون برصد ما يجدونه في ترحالهم. وعلى مدى هذه القرون الطويلة تجمعت نصوص عديدة متباينة الأهمية متفاوتة الحجم بارزة الفائدة لمن يروم

تتبع تطور طرابلس والمكانة التي تمتعت بها في المجالات السياسية والاقتصادية والركيزة الاجتماعية والثقافية لذلك. لقد قام الأستاذ خليفة محمد التليسي في كتابه " حكاية مدينة " بتقديم النصوص العربية حول طرابلس وإننا نقدم هنا جملة من النصوص العربية والأوربية في تسلسل تاريخي مع السعي إلى تفادى تكرار المقاطع المتشابهة وهي محاولة لوضع مادة محفزة لمن يروم الاستزادة بالرجوع إلى المؤلفات التي استقيت منها هذه المقتطفات. وحسب تقديرنا فان المادة حول طرابلس في المؤلفات الأوربية حتى مطلع القرن العشرين ـ في أكثرها كتب رحلات ـ لا تقل عن 1000 صفحة شغل الجانب الاقتصادي والاجتماعي جزءاً كبيراً منها. ولو أن العديد من هذه المؤلفات مازال لم يترجم إلى العربية إلا أنها جديرة بان يستفاد منها بلغاتها الأصلية. وان معظم ما نقدمه هنا مأخوذ من الترجمات وجرينا في جمع المقتطفات التي وضعناها أن نقدم أولاً نبذة عن الرحالة ورحلته أو رحلاته والكتاب الذي استقى منه المقتطف. وحاولنا قدر الإمكان أن نضيف مجموعة من الصور التاريخية التي تيسر لنا الحصول عليها، وركزنا بصورة خاصة على تلك التي وضعها الرحالون الأوربيون في مؤلفاتهم ولنبدأ أولا بالمقتطفات التي استقيناها من المؤلفين العرب وقد اخترنا منهم مايلي:

1- الإدريسي 493 هـ560 هـ(1100م ـ 1166م).

2- رحلة التجانى 670 هـ ـ 721 هـ(1276 م ـ 1321 م)

3- رحلة العياشي 1037 هـ ـ 1090 هـ/ (1627 ـ 1679 م).

4- الرحالة المغربي أبو العباس سيدي أحمد بن محمـد الدرعي (1647 ـ 1768 م).

5- الرحالة عبد السلام الناصري.

أولاً الإدريسي: ـ أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الله بن إدريس الصقلي أو الشريف الإدريسي عالم عربي ينتمي نسبه إلى الحسن بن علي وفاطمة الزهراء بنت محمد بن عبد الله ومن هنا جاء لقبه بالشريف لنسبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو احد كبار الجغرافيين كما انه كتب التاريخ والأدب والشعر ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة ولـد فـي مدينة سبته فـي المـغرب الاقصي عـام **493** هـ(**1100**م) ومات **560** هـ(**1166** م) أهم مؤلفاته نزهة المشتاق في اختراق الأفاق وسمى أيضا كتاب رجار أو الرجارى حيث وصف مدينة طرابلس قائلا " مدينة طرابلس مدينة حصينة عليها سور حجارة وهي في نحر البحر بيضاء حسنة الشوارع متقنة الأسواق وبها صناع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات وكانت قبل هذا مفضلة العمارات من جميع جهاتها كثيرة شجر الزيتون والتين وبها فواكه جمة ونخل إلا أن العرب أضرت بها وبما حولها من ذلك وأجلت أهلها وأقفرت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها واغورت مياها واستفتحها الملك رجار في سنة أربعين وخمس مائة فسبى حرمها وافني رجالها وهي الآن له في طاعته ومعدودة في جملة بلاده وارض مدينة اطرابلس عديمة المثال في إصابة الزرع ولا يدري أن على معمور الأرض مثلها في ذلك وهذا مشهور معلوم.

ثانياً: رحلة التجاني :هو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجانى ولد بين **670 ـ 721 هـ(1276 ـ 1321)** في مدينة تونس عاصمة الحفصيين ودار ملكهم كان أبوه وجده وأبناء عمومته من أهل الأدب والعلم والفقه فقد نشا في بيت عرف بالعلم من الفقه والأدب إلى الشعر إلى التاريخ قام برحلته في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي عامي **706 -708** حيث قدم لنا أوسع صورة عن مدينة طرابلس وضواحيها ويعتبر التجاني أوفي مصدر عن تلك الفترة كما يعتبر من أهم مصادر تاريخ لليبيا وأحوالها العامة في تلك الفترة وقد أعتمد على معلوماته من الدارسون والمؤرخون ومن أهمهم. المؤرخ الكبير ابن خلدون كما نالت هذه الرحلة أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية الحديثة سواء عند العرب أو الأجانب.

ويدل وصف التجاني لمدينة طرابلس دلالة واضحة على ما كانت تنعم به من رخاء وازدهار، وما كان بها من معالم تدل على أمجادها القديمة، وما كانت لها من منزلة ضمن المدن الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط. فيقول التجاني في وصف لمدينة، " ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس ويعشى الإبصار فعرفت صدت تسميتهم لها بالمدينة البيضاء وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء وتخلى والى البلد إذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها ورأيت أثار الضخامة بادية على هذه القصبة غير إن الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة أكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن أنما استخرجت منها ولها رحبتان متسعتان وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لان عشرة من أشياخ

البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم وزال عن المسجد ذلك الاسم.

وكان يقابل هذه القصبة موضع يعرف بالرياض مخصوص بوالي البلد واصله من مباني بنى مطروح رؤساء طرابلس في القديم ويذكر عن حسنه وثماره وضخامة مبانية وهو الآن خرب غير أن به اثاراً دالة على ما يذكر عنه وقد اقطع هذا الموضع في هذا الوقت لبعض العرب فغيره عن حاله وابتنى في موضعه داراً.

كما يوجد حمام البلد وهو المجاور للقصبة وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد وبالبلد حمامان آخران غيره إلا إنهما في الحسن دونه، كما أن شوارعها نظيفة ولا أحسن اتساعا واستقامة، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من اولها إلى أخرها على هيئة شطرنجية فالماشي يمشى بها مشي الرخ خلالها

ذكر التجانى من الأبواب باب الأخضر وباب الستارة وباب هوارة وباب البحر بداخل المدينة خلف باب هوارة بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم أما عن المساجد فيذكر منها مسجد عمرو بن العاص وينسب بناؤه إليه وهو قرب موقف الغنم، [في المكان الذي يقوم عليه حالياً مسجد أحمد باشا القرمانلى] ومسجد العشرة، ومسجد الشعاب، ومسجد الخطاب، وهو بخارج المدينة من الجهة شرقية على بحرين للشيخ خطاب البرقي الرجل الصالح ومنها المسجد المعروف بالجدود ويعرف أيضاً بمسجد الجده لان أحدى جدات بني الأغلب، ولاة أفريقية قد بنته. وهكذا

كان يعرف في القديم كما يعرف بمسجد البارزني لسكنى ابن الحسن البارزني به، وهو بخارج طرابلس من جهة جوفيها مشرف على المقابر. مسجد الحجاز [منها المسجد المعروف بمسجد الحجاز وكان معروفاً بسكنى على بن أحمد الخطيب أقام ساكنا فيه أربعين سنة وكان فقيهاً صالحاً عالماً زاهداً]. وبداخل المدينة توجد مدارس وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه ابن محمد عبد الحميد بن آبي البركات بن أبي الدنيا رحمه الله و ذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلي سنة ثمان وخمسين وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً

ثالثا: رحلة العياشي :- (ولد في سنة **1037** هـ/ **1627**م و توفي في سنة **1090** هـ **1679**م) هذه رحلة الشيخ الرحالة الأديب المثابر الحافظ أبي سالم سيدي عبد الله بن محمد ابن أبي بكر العياشي احد من أحيا الله بهم طريقة الرواية بعد أن كانت شمسها على أطراف النخيل قرأ بفأس ومن مؤلفاته منظومة البيوع وشرحها ونفسه ذي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفائية تأليف في معنى لو الشرطية وكتاب الحكم بالعدل والأنصاب وافتقار الأثر وتحفة الإخلاء ورحلته المسماة بماء الموائد وهي رحلته مفيدة وله غي ذلك.

لقد مر العياشى بطرابلس في طريقه لأداء فريضة الحج في ربيع الأول في سنة **1059** هـ ويتفق مروره بها مع وجود عثمان باشا على رأس الولاية حيث وصف العياشي مدينة طرابلس في تلك الفترة بأنها " مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة ونكايتها للعدو شهيرة ومآثرها جليلة ومعانيها قليلة. أنيقة البناء فسيحة الفناء عالية الأسوار متناسبة الأدوار واسعة طرقها، سهل طروقها إلي ما

جمع لأهلها من زكاء الأوصاف وجميل الأنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاماً ولو لمن استحق ملاما. سيما مع الحجاج الواردين ومن انتسب إلي الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم ولا يألون جهداً في أفضالهم عليهم وأنعامهم. ولهذه المدينة بابان: باب إلي البر وباب إلي البحر لان البحر يحيط بكثير من جهاتها والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر. ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو دمرهم الله وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر كلما تسافر وترجع بغير غنيمة وكلما أسرت لهم سفينة التجارة إلا أن تكون التجارة لا من سفن الجهاد فجزأهم الله خيراً وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين.

وكانت عادة الركب إذا ادخل هذه المدينة سيما في الذهاب إن، يقيموا بها نحواً من شهر يستعدون فيه لدخول المفازة التي قل نظيرها، وهي مفازة برقه. ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الإبل والقرب، ويتخذون زاد نحو من ثلاثة أشهر إلي مصر إن كان الوقت شتاء، وإن كان صيفاً فنحو من شهرين. وابل عمالة طرابلس غاية في الجودة قل أن يوجد لها نظير شبيهة بابل بلدنا بل تزيد بكثرة الخدمة فأنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراس ويسنون عليها يديرون الرحى فتمرنت بذلك المشاق العظيمة مع طيب هواء البلدة ونقاء مرعاها، فيقل فيها الغش، وتندر أمراضها ولذا قيل في أمثال الحجاج: جمل طرابلسي وقربة مصراتيه. وهذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين في أمرها فربما أجتمع فيها من الركبان الذاهبين والاتين

خمسة أو ستة ويصادف ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد، ومع ذلك لا يزيد فيها السعر. على ما كان في كل مطعوم بل ربما نقص في البلد، مع أن البلد في كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلي أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله إلا أن أهلها مستكفون بها غاية وراضون بها إلي النهاية وهي جديرة بذلك.

"لقد أقام العياشي ما يقرب من تسعة أيام في مدينة طرابلس وصور لنا انطباعاته عنها فيما تقدم من عبارات، وهي انطباعات ذاتية خلت من التأثر بأحكام الرحالة الجغرافيين السابقين وهذا النص يعبر بوضوح عن مكانة المدينة باعتبارها محطة رئيسية على طريق الحج المغربي وعن مكانة سوقها في تزود ركب الحجيج منه للمرحلة ما بين طرابلس ومصر، وبالإضافة إلى ذلك يتضمن إشارات واضحة إلى موقف المجتمع الطرابلسي المتميز في التعامل مع الحجيج.

رابعاً: أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (1647 م - 1768 م) هو أبو العباس احمد بن ناصر الدرعي ينتمي إلى الأسرة الناصرية بنامجروت وقد كان ولادته عام **1057** هـ**1647** أما وفاته فقد كانت عام **1128** هـ**1768** وقد نشا ابن ناصر نشأة علمية في كنف عائلته جامعاً العديد من المعارف له العديد من مؤلفات والكتب كانت رحلة ابن ناصر نحو الأراضي المقدسة عام **1709** وهي من الرحلات المغربية التي عبرت الأراضي الليبية وتعد ذات أهمية لتاريخ ليبيا وقد نشر الجزء الخاص بليبيا وكانت رحلته الأولى التي قام بها إلي الحج سنة **1119** هـوقد صادف وصوله إلي طرابلس في حجته الأولى **1096** هـمهاجمة الأسطول الفرنسي لها وقصفه لمواقعها وقد سجل

الرحالة حالة الذعر التي انتابت الأهالي من هذه الغارة العنيفة وأثرها المادي والمعنوي على المدينة ومنشأتها. ويصف ذلك بقوله: [حاصرها الكفار دمرهم الله تدميراً وذلك كان يوم نزولنا نزل الركب بسور البحر إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر تم تتابعت الفلك في اليوم نفسها إلي أن كملت أثنين وعشرين سفينة، فأقاموا عليها دمرهم الله بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة. وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم، وعناء شديد وليس فيهم مدبر ولا ذو رأى جميل أو نظر سديد، بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها، وحريمهم إلي سوانيهم بالمنشية. ولما رأينا ذلك تكلمنا مع وجودهم على فعلهم غير اللائق، فيما يبدو لنا من إظهار الجزع والجبن لأعداء الله الكفرة اللئام الفجرة، وقلنا لهم إن هذا الصنع الذميم مما يغريهم عليكم، فاصبروا ولا تظهروا لهم الوهن والجبن. فقالوا هذا والله ما ليس منا بجبن، وإنما حملنا على ما رأيت ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البنبة[1] يضربون بها، ولا تقع على شيء كائن ما كان إلا وهدته ودكته. والمسلمون في هذه الليالي كلها لا ينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله. ونحن ركبنا معهم في ذلك، مستهلين بالشهادة رافعين أصواتنا بالتكبير، معلنين الصلاة على اله البشير النذير، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحية من الملك القدير وعلى اله وصحبته في المنهاج الواضح المنير. فلما كان بعد العشاء ليلة السبت ضرب الكفرة دمرهم الله بمدافعهم، فرأينا من ذلك ما لم نره قط ولا سمعنا به. ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محمرة تحكي الشهب خرجت منه

---

(1) ـ القنابل

وصعدت. ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصم منه الأذان، فتتصدع في الموضع الذي وقعت فيه وتتفرق لا تقع على بناء إلا وهدمته ولا على بسيط مستو إلا وحفرته ولا عليه أو أسطوانة إلا وهدتها ولا على شجرة إلا وأحرقها أو قلعها فتمكث في أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول، ونحن في ذلك كله رافعو الأكف بالافتقار والخضوع والتضرع إلي الله تعالى، الليل كله ولا نكتحل بنوم قط، وما خرج مدفع من مدافعهم إلا وظننا أنه يقع علينا، فتارة يقع حذاءنا وتارة تمر علينا، وأكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة أو خارجها. وفي بعض الليالي وهي من الليالي الهائلة أخذوا في الضرب الليل كله إلي الصباح، بل إلي الضحى لا يفترون عنه ساعة، وضربوا فيما أخبرنا به بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كورة، فما رأينا هولهم العظيم.

ومعنا النساء والصبيان، وفيهن الحوامل خشياً عليهم أن يقذفن ما في أرحامهن مما يعاين، فتحولنا لبعض البساتين المسورة، فنزل الركب بها، وأدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم أمسكوا عن الضرب إلي أن صلى العشاء فضربوا أيضاً دفعة واحدة، فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسدت كورهم بإخماد ما تعلق بها من نار وعند الفجر عادوا للرمي إلي الضحى، ولما قرب الزوال زحفوا للمرسى فعاقهم قرب البرجين اللذين على البحر من المرابطين بها البائعين أنفسهم من الله. وقط لا يخلوان من حارس في السلم والحرب. وردوهم على أعقابهم وولوا أدبارهم وعانقوا أدبارهم والحمد لله رب العالمين، فكثر اللغط والعويل بالبلد فجاء أهل الإسلام، من كل وجهة، وركبنا بعدد وعدد كل بحسب وسعه،

فاكفهرت وجوه الأبطال وتجلت سفارة الرجال وشمروا للنزال وتهيأ و للدفاع والقتال. واحمرت الحذق فكسا الكفرة الفرق، فارتحلوا إلي أبعد مكان فأبعدهم الله وأسحقهم وأذلهم وأقلقهم فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم. وأشد الناس حنقا عليهم الحجيج فعملوا على التجهاز والنضال والبراز ولولا البحر لأراهم الله في أهل الإسلام ما يسيئهم. فكتب كل وصيته وأعد الشهادة مغنما وفواتها مغرماً. كل يرجو أن تخرج الكفرة للبر، اجتمع آلاف مؤلفة من أهل الإسلام الأبطال، من أهل الدفاع والقتال وما رد الكفرة من الخروج إلا ما رأوا من شدة الحزم وقوة العزم وأبلغ الغيظ من أهل الكفر والظلم. ثم جرى بيننا صلح على أن يرجع لهم المسلمون جميع ما عندهم من أسراهم، وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك، والكفار على المسلمين أن يردوا لهم ما أخذوا لهم قبل ذلك الزمان في البحر في معركة بينهم وقبل المسلمون ذلك وقدره والله أعلم مائتا ونيف ريالة قرميلية. فحينئذ دخل الكفرة المدينة للتسوق، وربما أغلظوا على بعض المسلمين في القول لتوعد أمير البلد من العثماني على من أساء على كافر ولو بكلمة بعقاب شديد. وهو علج فأغرى ذلك الكفار على أهل الإسلام، فصبر أهل المدينة لذلك. وأما المغاربة وجميع الحجيج فأغلظوا على الكفرة واخشنوا لهم في القول، وربما ضربوهم ولا القوا إليه بالا إعزازاً لدين الله، وإعلاء لكلمة الله. فرفع الكفرة ذلك إلي الأمير العلج المذكور فقال إن المغاربة شداد على النصارى فاتركوهم لئلا يقع فيكم القتل ولا يد لي عليهم، فدعوهم عنكم وتحملوا منهم ما واجهوكم به وأخذوا في دفع ما شرط عليهم فصاروا يدفعون لهم الخيل والزرع والإبل، ولا حول ولا

قوة إلا بالله العلى العظيم فكلمنا علماءهم المالكية فقالوا إن هذا والله هو الصغار بعينه، ولا قدرة لنا على ما فعله فينا هؤلاء الأتراك، وخرجوا تلك الأيام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم.... ثم أجلى الله الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد إتمام المهادنة وإمضاء شروطهم وفرح المسلمون بانتقالهم عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح أخزى الله الكافرين وأذلهم وأعز الإسلام وأحاطهم....))

وتتفق هذه الصورة التاريخية تمام الاتفاق مع الواقع التاريخي الذي ضبطته وقائع العصر سواء من الجانب الوطني أو الجانب الأجنبي.

وكان ذلك في عهد الحاج عبد اله داى. كما يتفق الموقف الذي سجله الرحالة لعلماء الطرابلسيين مع ما سجله العالم ابن غلبون.

أما حجة الدرعى الثانية سنة **1119** هـ(وهي الحجة التي ألف فيها الكتاب عن رحلته) فتتفق مع أحداث أخرى هامة جرت في مدينة طرابلس في عهد خليل باشا الذي خلف محمد باشا الإمام على الحكم. وخرج في نهاية **1709** لمحاربة عبد الله بن عبد النبي الصنهاجى الذي استولى على القافلة التي كانت تحمل خراج فزان فقام الرايس إبراهيم اليلى بخلع بيعته وعين حسين آغا بدلا منه، فعاد خليل على الفور وعسكر بجيشه في المنشية وقد خرج سكان المدينة لمحاربته ويذكر الدرعي في ذلك :

((كان وصولنا طرابلس ظهر يوم الأحد الثاني والعشرين من شعبان ستة عشر من أكتوبر. ونزلنا بإزاء الهنشير لأجل فتنة وقعت واختلاف بين أهل طرابلس وباشا خليل، كان ظلوما فجوراً يقدم الكفرة من الروم على أهل

الإسلام واتخذ بطانته من النصارى ويوليهم على المسلمين، وكاد يخلع ربقة الإسلام من عنقه وأضر بالمساكين ولا لأحد عنده حرمة من أئمة المسلمين وسادتهم بل يعمد إلي الإساءة بالأعيان من المرابطين والعلماء العاملين فلا يرقب في أحد إلا ولا ذمة حتى لا تجد الرعية ملتجأ ولا منجا إلا إلي الله، فلذلك قيض الله له من نفاه من أهله وقبيلته، وقامت معه العامة واستعدوا على نفيه ورموه عن قوس واحد وخرج عن البلد لغرض أراده فسدوا المدينة في وجهه والشوارع بين يديه ولم يجد مسلكاً لما أراد وخيم بطرق محاصراً للبلد جنده وحزبه المخذول ولما حاذينا بعث لملاقاتنا أعيان دولته مع محلته، فلقيناه ورغب في النزول بإزائه والبيات تلك الليلة بحذائه، وامتنعنا وسرنا وتعرض لنا أهل الساحل والمنشية أفواجاً فرادى وأزواجا بقضهم وقضيضهم وعددهم وعديدهم آخذين أهبتهم ومبدين شوكتهم، ولما عاينونا وأيقنوا أنا لهم سلم وأنا وفد الله وزوار نبيه وحجاج بيته ضجوا باكين وجاروا داعين وكشفوا رؤوسهم وأذلوا نفوسهم وأعلنوا عقيرتهم وكشفوا سريرتهم قائلين بصوت عال ودوى متوال يا لوفد الكبير المتعال من للأسير العاني المضيم المتفاني....)).

أما وصفه لمدينة طرابلس فهو منقول عمن تقدمه وخاصة العياشي، ولا يشكل أي إضافة سوى ما يعنيه النقل من الموافقة والتأييد.

خامساً: ابن عبد السلام الناصري في رحلته إلي الحج مر بطرابلس سنة **1211** هوألف رحلته الحجازية الكبرى التي فند فيها آراء الاسحاقي فقال: (وقد مر بهذه البلدة بعض الأدباء من أرباب الدولة العلوية في الأيام الإسماعيلية الماضية فاقتفى في وصفها العبدرى، وهو في ذلك جاهل أو مفتر))

وقد تحمس الناصري لمدينة طرابلس ودافع عنها، ونقل قطوفا من أشعار المغاربة في وصفها ومدحها وقال (لو تتبعنا ما وقفنا عليه من مدح طرابلس وأهلها لخرجنا بكم عن المقصود والحاصل مدح البلد وأهلها وحسن أخلاقهم وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها ملأ الخافقان، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح وما زالت الأشراف تهجى وتمدح). وقد وصف الناصري المدينة في عهده بالحسن والأناقة فقال (وبالجملة فهذه البلدة أنيقة في بحار الجمال والحسن غريقة، أعطى ساكنها الشجاعة والنهاية في الحزم والبراعة، أشربت قلوب من بها مهابة وما أرادهم أحد بسوء إلا والله تعالى كالملح أذابه، أمطر الله عليها سحائب الرحمة ودمر أغداءهم من سائر الكفرة... وزاد البلد حسناً ما بساحتها من المنشية، ذات النخيل البهية، والثمار الرائقة والفواكه الفائقة، يكل عنها نطاق البيان، ولا يضبطها لسان ولا بنان لا سيما اللاقوج الذي لا يوجد له مناظر والليمون الذي يتخذ من أنواع الأزاهر لتنظيف الثياب والأبدان).

وقد أمضى الناصري سبعة أيام بمدينة طرابلس قابل فيها علماءها واطلع على أحوالها وزار محارسها ومزارتها وتحدث عن صلحائها حديثاً طويلاً وما من شك في أن الرحالين المغاربة قد شكلوا برحلاتهم الحجازية مصدراً هاما من مصادر التاريخ للبلدان التي زاورها ومروا بها في رحلتهم. وتتوفر لنا صور عديدة وألوان مختلفة عن الحياة في مدينة طرابلس في العهد القرمانللى قام برصدها وتسجيلها بعض الرحالة والدارسين الأجانب الذين أتيح لهم أن يزوروا

المدينة أو يقيموا بها فترة من الوقت، كانت كافيه لتسجيل انطباعاتهم عن الحياة العامة .

المقتطفات المأخوذة من مؤلفات الرحالة الأوربيين:

من أوائل الرحالين الأوروبيين الذين نلتقي بهم الرحالة لوكاس الذي أتخذ من طرابلس **1788** نقطة انطلاق نحو أواسط أفريقيا، ولكنه أخفق في مهمته ورجع من مصراته وأكتفي بتقديم تقرير بالمعلومات التي تواترت عن إقليم فزان. ولم يهتم هذا الرحالة بوصف مدينة طرابلس التي أقام بها في الذهاب والإياب. كما لم يهتم بها أيضاً الرحالة فريدريك هورنمان الذي أقام بطرابلس لكتابة تقريره من الرحلة التي كان قد أنجزها من القاهرة إلي فزان ومنها إلي طرابلس في سنة **1800** ثم إلي برنو حيث لقي حدفه. ولا بد لنا مما نشر من مذكراته ويومياته أنه قد أهتم بمدينة طرابلس التي قام بها فترة طويلة من الوقت وإنما أنصرف همه إلي الهدف الأساسي للرحلة ووصف المناطق الداخلية مسالكها في الأراضي الليبية وكما زار مدينة طرابلس مجموعة أخره من الرحالة الأوربيين والذين نتوفر على وصف مدينة طرابلس في مؤلفاتهم وهم: بارت ورولفس وناختيغال وفون مالتسان **1869** وكراوزه وبانزه **1906** أي إننا في وضع يسمح لنا بتتبع تطور المدينة خلال ستة عقود من منتصف القرن التاسع عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين وان جميع الرحالين يؤكدون المنظر الرائق لمدينة طرابلس من الخارج وعلى وجه الخصوص من البحر أسوار المدينة البيضاء الوضاءة ذات الفرضات والأبراج الصغيرة، كتلة السراي الخلابة ذات الشكل غير المنتظم عن يسار المدينة والحصن القائم على لسان صخري بارز

داخل البحر عن يمينها، والبيوت القائمة بينهما ذات الطراز المغربي والبعض منها ذو طراز أوربي، إلا أنها جميعها ذات سطوح مستوية، وتعلو من بينها القباب ومآذن الجوامع والزوايا والمدارس على شكل أعمدة هذه العناصر تشكل كلا تدعه الشمس الافريقية يتبسم، وينعكس على سطح البحر المتوسط الأزرق. وأنها ولا شك تشكل منظراً أخاذاً لا نجده إلا في القليل من مدن الشمال الأفريقي ونورد فيما يلي تبعاً لتسلسل الرحلات زمنياً مقتطفات من أهم مؤلفات الرحالة.

الرحالة الأسباني باديا لبليك 1805 :ـ

المعروف باسم علي بك العباسي وقد قام في نوفمبر **1805** بزيارة طرابلس ضمن رحلته الكبيرة في بعض البلدان الأفريقية الآسيوية وهو يقدم لنا صورة مختصرة ولكنها هامة عن الحياة في طرابلس في ظل الحكم القرمانلى فيقول ((إنها مدينة أجمل بكثير من أية مدينة بمملكة المغرب تقع على شاطئ البحر وطرقها مستقيمة وواسعة بدرجة كافية وبيوتها منتظمة وحسنة وأكثرها تقريباً تتميز ببياضها الساطع الباهر. وتقترب هندستها جداً من الطراز الأوروبي أكثر من اقترابها من الطراز العربي أما أبوابها فهي بصفة عامة من النسق التوسكانى)).

وقد فطن هذا الرحالة إلي ما لم يفطن إليه غيره من التشابه في الخصائص المعمارية بالأساليب الأوروبية كما سجل الأثر الذي خلفه الطاعون الذي أصاب المدينة في عهد على باشا وظل أثره على المدينة حتى السنة التي قام منها على بك العباسي برحلته فيقول.

"لقد انقص الطاعون كثيراً من عدد السكان بالمدينة إذا قضي في الغالب على أسر بكاملها وما يزال يشاهد المرء حتى الآن بعض المنازل المهجورة أو المنهارة بسبب هذا الوباء ويبلغ السكان في الوقت عددا يتراوح بين الثلاثة عشرة ألف والخمسة عشر ألف. " وبالنظر إلي الطابع العثماني المطلق الغالب على الحكومة، فان المدينة هنا متقدمة جداً على المغرب والأغلبية العظمى من السكان تفهم وتمتلك عدة لغات أجنبية وأوروبية والباشا نفسه يتكلم اللغة الإيطالية كما أن المجمع هنا أكثر انطلاقا وحرية من المغرب، وأشار إلي المعاملة الحسنة التي يلقاها الأسري المسيحيون وذكر أن في أمكان المعتنقين منهم للإسلام أن يحتلوا مناصب عالية في الدولة، ويشير إلي ستة مساجد من الدرجة الأولى، وستة مساجداً أخرى أصغر منها وأكبره المساجد في نظره مسجد أحمد باشا القرمانلى وتلفت نظرة المآذن المخروطية بطرابلس. وثمة ثلاثة سجون بالمدينة اثنان للأهالي والثالث خاص بالأتراك. كما أن وجود حانات ومقاه كثيرة يديرها مسلمون الأسواق مجهزة بالبضائع والأسعار معتدلة وعدد اليهود حوالي ألفين ويعاملون معاملة أحسن من المعاملة التي يلقاها يهود المغرب وهم يحتكرون تقريباً التجارة مع أوروبا.

ديللا شتلا: ـ

كما مر بطرابلس الرحالة الطبيب أوغسطين ديللا شتلا **1811** بمراقبة الحملة العسكرية الذي جردها باشا طرابلس ضد برقة وقد سجل يومياته كاملة عن الرحلة التي قام بها ولكنها ضاعت ولم يبق منها سوى نتف قليلة متفرقة متصلة برحلته في برقة والجبل الأخضر، وجاء بعدها رحالة الإيطالي

أخر هو الدكتور باولو ديللا شيلا الذي كان أحسن حظاً حيث حفظ لنا التاريخ رحلته الهامة التي وصف فيها مرافقة للحملة التي جردها يوسف باشا ضد أحد أبنائه الخارجين عليه ويدعي هذا الرحالة أن الغرض الأساسي من رحلته كان البحث عن الآثار التي قامت على شواطئ ليبيا في العهود اليونانية والرومانية وكذلك النباتات وهي الحيلة المعروفة التي تزرع بها كثير من الرحالين للتوغل في المناطق الداخلية في العهدين القرمانللى والعهد العثماني الثاني. وقد قام ديللا شيلا كما يقول في رحلته شهراً كاملاً بمدينة طرابلس في ضيافة قريبه قنصل ساردينيا، ومن الملفت للنظر في رحلته أنه رغم هذه الإقامة الطويلة لم يتعرض لمدينة طرابلس بوصف ولم يستوقفه شيء من آثارها التاريخية بما في ذلك القوس الرومانية التي لم يغفلها أحد من الرحالين القدامى والمحدثين ويزداد العجب إذا علمنا ما يبديه هذا الرحالة من اهتمام بالآثار جعل منه هدفاً رئيسياً لرحلته على حد قوله. ويبدو أن الرحالة ديللا شيلا لم يباشر كتابة انطباعاته إلا بعد سيره في الحملة العسكرية مما جعله يهمل إهمالاً تاماً وصف مدينة طرابلس ولم يتعرض إلا إلي بعض العادات والتقاليد المتبعة في توديع الحملة وقيام قائدها بزيارة الأولياء والفقهاء للتبرك والحصول على الدعوات الصالحة كما وصف أوضاع الجند وطريقة التجنيد وإقامة المعسكر ونصب الأعلام الدالة على حشد الحملة وسفرها مما يصلح أن تكون مادة للدارسي المهم برصد ووصف الحياة العسكرية في تلك الفترة وتسجيل العادات والتقاليد السائدة في العهد القرمانللى. ومر ديللا شيلا مروراً عابر على مدينة طرابلس فلا يستوقفه شيء منها ويكتفي بالقول[أن طرابلس تقع على

الساحل لا يعثر فيه الباحث على المعادن إلا على الرمال يجري عليها فحوصه وأختباراته حيث لا تنمو النباتات إلا بمشقة بسبب الجفاف وإهمال الفلاحة. وإن البلد كله مهدد بالغزوات المستمرة من قبل القبائل البدوية وأن السلب لهوا أقل الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها المرء الذي يقع في فخ هؤلاء وقد كان ديللا شيلا ناكراً للفضل جاحداً للنعم التي سجلها هو نفسه في تلك الحماية والحراسة التي وفرت له ما لم يتوفر لغيره من الرحالين إذا كان يسير ضمن حملة عسكرية، مشمولاً برعاية الباشا الحاكم، وأبنه قائد الحملة. وقد ظل مقيماً بطرابلس مدة شهرين متمنيا هذه الفرصة النادرة ولكن لا بد من الصعوبات حتى تبدو شخصية الرحالة بمظهر المغامر المقتحم للأخطار. ولعل الصورة الوحيدة التي تستلفت اهتمامنا فيما يتصل بحياة الاجتماعية والحربية تلك الصورة التي يقدمها عن الكيفية التي كان يتم بها تجريد الحملات الحربية

الرحالة ليون ولد ما بين 901 هـ 1495م - 906 هـ 1500م

هو الحسن بن محمد الوزان المشهور باسم ليون الأفريقي ولد بمدينة غرناطة قبيل سقوطها في يد الاسبانيين واختلف المورخون في تحديد سنة ولادته فيجعلها بعضهم عام وبعضهم عام انتقلت أسرته وهو صغير إلى فاس حيث شب والتحق بالدراسة بجامعة القرويين تم عمل بعد ذلك لسلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي الذي قربه وكلفه بمهام سفارية مهما جعله يكتسب معرفة كبيرة ببلاد المغرب وأفريقيا وبعض البلدان الشرقية والأوربية وهم ما شجعه على كتابه مؤلفة " وصف أفريقيا " وإثناء عودته من تونس

1519 وقع أسير في يد صقلية وقدموه للبابا جون ليون العاشر لمدينة نابولى تم تنصيره وتسميته بليون الأفريقي أو يوحنا الأسد الأفريقي.

زار طرابلس في سنة **1818** الرحالة الإنجليزي الكابتن فرانسيس ليون وأقام بها فترة من الزمن مع رفيقه في الرحلة الدكتور جوزيف ريتشي. أمضياها معاً في التمهيد للرحلة وتأمينها وزيادة التمكن في معرفة اللغة العربية والتقاليد و العادات السائدة. ولم يهتم ليون كثيراً بوصف مدينة طرابلس قائلاً "" أنه من العبث محاولة تقديم وصف لمدينة طرابلس، فقد قامت بتقديم مثل هذا الوصف أقلام أقدر وقد أهتم بصفة خاصة بوصف بعض العادات المتبعة في مواكب الزوايا الدينية وخروج الحضرة كما وصف ملابس العرب واليهود. والحق أن هذه الرحلة على أهميتها لا توفر لنا شيئاً من المستوى الرائع الدقيق في الوصف الذي بلغته رسائل المس توللي. وهي لا تزيد عن أنها انطباعات سريعة عابرة شغل فيها الرحالة بدراسة العادات والتقاليد أكثر من انشغاله بدراسة الآثار والمعمار. وقد كان في حاجة إلي مثل هذه الدراسة التي تساعده على تقمص الشخصية العربية الوطنية تحقيقاً للتستر على أهدافه التي جاء من أجلها وتسهيلاً لنفسها، والواقع أن حظ هذه المدينة من الازدهار في العهد القرمانللى قد تفاوت بتفاوت خطوط الولاة من القوة والسعة والضيق والضنك. فقد شهدت في الفترات الأولى من عهد أحمد باشا القرمانللى استقرار ساعده على الازدهار واستعادة حيويتها الماضية وجعلها تنهض بشيء من التثاقل من أثر تلك التركة المرهقة من الخراب والدمار واضطراب الأمن، خلال الفترات الأخيرة من حكم خليل باشا وأبي ميس وبطانته. وعلى الرغم من أن التجارة

في الفترة كانت نوعاً محدودة فقد ظلت. المدينة على صلتها البحرية بالمدن الأوروبية وخاصة الإيطالية، كما ظلت لها أيضاً صلتها بالمناطق الجنوبية، كما ظلت أيضاً محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلي الشرق والعائدة من الغرب إلي الشرق. وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلي طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية، كما كانت إقامتها عدة أيام بها فرصة لنشاط علمي وتجاري كبير حيث تشتري الحرير الدمشقي الإيطالي والمصنوعات الزجاجية لبندقية وغيرها من المستوردات المتوفرة في الأسواق طرابلس وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب.

رتيشارد توللي: عشر سنوات في بلاط طرابلس

يصف الرحالة ريتشارد توللى كانت مدينة طرابلس، ولا تزال، محاطة بسور ضخم منيع و أبراج هي الان في حالة خربة، وان كان العارفون بهذه الشؤون يرون أنها لا تحتاج إلى أكثر من ترميمات بسيطة حتى تغدو تحصينات بالغة المنعة، ويغسل البحر إقدام المدينة من ثلاث جهات، أما في الجهة الرابعة فيوجد سهل رملي يطلقون عليه اسم " المنشية " ومدينة طرابلس غير مستوية السطح نتيجة لركام المزابل والنفايات وكثيراً ما يبنى المواطنون دورهم فوقه دون إزالته، حتى أن عتبات الأبواب المؤدية إلى الشارع من بعض المنازل قد تكون اعلي من سقوف منازل أخرى قريبة منها واسطحتها. والشوارع في المدينة ضيقة، لكنها ضعف عرض مثيلاتها في الجزائر أو تونس على وجه التقريب، ويكاد يكون مقصوراً على عدد ضئيل من عظماء البلد، ومخصصا لاستعمال الحريم

من أسرهم وهو نوع من الهودج[1]. ويتم نقل البضائع والحاجيات في العادة على ظهور الجمال والبغال ولما كانت الطرق هنا غير ممهدة فان الغبار الذي تنشره اخفافها وحوافرها في شوارع المدينة الرملية والجلبة التي تنشا عن حركة الدواب ـ لهى شئ لايطاق ـ وتقوم المدينة عند حضيض صخرة ضخمة وهنا وهناك توجد بقايا طرق مرصوفة بعضها قديم جدا يبين بوضوح انه من عمارة الرومان والتجار هنا لا يعرضون بضائعهم في مخازن كبيرة، وإنما هي حوانيت وسقائف مع أن محتوياتها كثيراً ماتكون بضاعة ثمينة تتألف من اللالي، والذهب، والجواهر والعطور النادرة. وهناك بازاران أو سوقان مسقفان، احدهما كبير جدا ومبنى على شكل أربعة صفوف متصلبة عند التقائها وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف أصناف السلع والبضائع. ولها في الوسط طريق يمر منه الناس ويتفرجون، وهناك أجزاء كثيرة من هذا المكان معتمة تقريباً تعبق برائحة البخور القوية. أما البازار التانى فاصغر من الأول بكثير، ولا دكاكين فيه. ولا يباع في هذا البازار سوى العبيد السود والإماء الرقيقات[2]. وبازار البن هو المكان الذي يقصده الأتراك ليتحدثوا عن الأخبار اليومية والشؤون العامة ويرشفوا بعض فناجين القهوة وهذا البازار " السوق " ملئ ببيوت القهوة، أو المطابخ القهوة على الأصح والجدران الداخلية لهذه المقاهي شديدة السواد من اثر الدخان، تم يصف قوس ماركوس اوريليو

---

(1) ـ محجب تماما بقماش الكتان ومنصوب على ظهر بعير ويقتصر استعماله على نقل سيدات الأسرة الحاكمة إلى مقرهن في الريف

(2) ـ سوق النخاسة

سثميت طرق إلى اسم المدينة فيقول لقد كانت اسم طرابلس عند الأقدمين، المدينة المثلثة لأنها كانت تشكل واحدة من ثلاثية المدن ليبتس، أويا، صبراته وهي تقوم في موقع مدينة أويا وفيما مسقط راس آبوليوس. وعند وصف البيوت في المدينة فيقول " تختلف بيوت كبراء طرابلس اختلافاً ظاهر عن مثيلاتها في مصر، فطرابلس لا تتعدى بيوتها طابق واحد، عند دخولك البيت تجد ما يسميها الطرابلسيون السقيفة، وعلى جانبها مقاعد حجرية وبعد هذه السقيفة يقوم سلـم إلى حجرة مفردة فخمة، يسمونها " العليه " ذات شبابيك وطاقات تطل على الشارع، ويقتصر استعمال هذه العليه على رب العائلة فهي غرفة مقدسة بهذا المعنى، فيما يحتفظ السيد بخزينته، ويصرف شؤون عمله، ويتمتع بعقد مجالس لهوه وسمره. والى وراء هذا المأوى يقع الليوان. وهو فناء أو ساحة مبلطة حسب قدرة صاحب المنزل المالية، فبعضها مصبوب بالاسمنت الأسمر الشبيه بالرخام الجيد الصقل، وبعضها مبلط برخام ابيض أو اسود وفي الدور الأدنى منزله تجدها مبلطة بالحجارة أو مفروشة بالتراب الممهد سواء كان المنزل كبيراً أم صغيراً، وفي القرية أو المدينة، فان تصميم بناته لا يختلف. ويستخدم الفناء لعقد اجتماعات النساء اللاتي يدعوهن ربة البيت، حين تقع مناسبة زواج أو عيد أخر كبير، ويحيط بهذا الفناء ساباط يرتكز على الأعمدة من فوقها ردهة بنفس الأبعاد، وتحفها شعاريات جميلة من الخشب المحفور. ومن أروقة الساباط والردهة تفتح الأبواب الى حجرات واسعة منفصلة الواحدة منها عن الأخرى، ولا منور لها جميعاً إلا الرواق. وليس للشبابيك زجاج بل خشب مشبك متداخل جميل التشبك، يسمح بدخول نور ضئيل ينفذ عبر

فجوات لا تتعدى الواحدة منها بوصة في اقطارها. ومن وراء الخشب تنتصب قضبان غليظة متصالبة من الحديد، وينظر إليها رب المنزل من الداخل فتوقع الاطمئنان في نفسه وتشعره بالارتياح من الغيره على حريمه. وسطوح البيوت مستوية ومقصورة بالجص او الملاط كما انها مسورة بتصوينة ترتفع قدماً واحداً تقريباً، لتمنع اى شئ من السقوط إلى الشارع، ومن هذه الاسطحة يسيل ما يتجمع من ماء المطر إلى أبار محفورة في ارض الفناء حيث يختزن إلى موسم سقوط الأمطار في السنة التالية. والماء العذب متوفر على عمق قليل من سطح الأرض في كل مكان، ومن المؤسف أن ليبيا تخلو من الأنهار، وبالتالي فان شحاً في الأمطار ربما سبب محطاً. أما إذا سقطت فهي تسقط بغزارة ولأيام وليال متواصلة وداخل الآبار مشغول من اخلاط شبيمة بالرخام في مظهرها الخارجي، ولربما كانت سعه البئر بقدر سعه الفناء الذي يعلوه.

والمخفر الذي يعرف باسم " السندنار " يقع في منتصف المدينة تقريباً حيث يقيم " الآغا " أو قائد المخفر مع فضيلة الخفارة. وهو يرسل شرذمة من العسكر يجربون شوارع المدينة، مصطحبين مجموعة من الكلاب المجوعة، توفر على صاحبها بذل أي جهد في إفزاع المواطنين تخوفهم، يطرحوا أرضا من الرهبة ولقد تم بناء واحد من ألطف فنادق [خانات] البلدة قبل بضعة أيام، إقامته زوجة الباشا على حسابه. ففي الخان يجد جميع المسافرين ملجأ مجانياً. ونيابة الخان ضخمة جداً وعلى شكل مربع، فيها بئر وجابية أو سبيل يجد فيه المسلمون ماء يتوضأون منه لتادية فرائض صلواتهم، وفي وسط الخان ساحة كبيرة مكشوفة يحيط بها عدد من الحجر الصغيرة يضع فيها المسافرون أمتعتهم

وينامون على سطوحها. أما الجمال والبغال والماشية العائدة لأولئك المسافرين فيمكن ربطها حول الساحة. وحين يصل المسافر الغريب ينفض رجل من أهل البلد عن ارض الغرفة ولا يسمح بالدخول إلى الخان قبل أذان المغرب، كما لا يسمح الخروج منه قبل أذان الفجر حين يفتح البواب إقفال بواباته. أما الحمامات في طرابلس واسعة في العادة ومبنية من الرخام. وهي تظل غاصة بالسيدات طوال ساعات النهار وحتى غروب الشمس.

أن المسجد الذي تقع فيه جبانة أفراد الأسرة الحاكمة لهو أجمل مثيلاته في المدينة نعم أن بقية المساجد أنيقة ونظيفة ولكنها دونه بكثير في ذلك على كل حال وهيكل المسجد الذي أتحدث عنه كبير، والبناء سامق، وقاعدته مربعة تقريباً وجدران المسجد حتى ارتفاع ثلاثة أقدام دون السقف مكسوة بعراضات من القاشاني الجميل الأشكال، تؤلف وحدة منسجمة فيما بينها ومثل ذلك سقف المسجد فهو مجمل على هذا النسق أيضاً. وفي المسجد ست عشرة اسطوانة من الرخام فيها قضبان رفيعة من الفولاذ، مطلية باللون للأزرق والذهبي تصل مابين الاسطوانة والأخرى مؤلفة شبكة واحدة على اتساع الجملون كله تتدنى عنه 6 أقدام. ومن هذه القضبان تتدلى تريات من المصابيح في سلاسل ثخينة من الفضة، ومباخر كبيرة، وبويضات من الزجاج معلقة بقياطين من الجرير. وفي ثلاث واجهات من المسجد جعل البناءون نوافذ مربعة عقدوا أعاليها على هيئة أقواس، وهي مشبكة بقضبان من الحديد دون صفائح زجاجية فيها. وفي قبلة المسجد أو الجهة التي شطر مكة يقوم منبر من الرخام الشبيه بالمرمر. وفوق المنبر قبة من المرمر ترتكز على أربعة أعمدة من

الرخام مكسوة بالذهب الخالص. والى جانب هذا المنبر في واجهة المسجد، هناك فجوة في الجدار تحت قوس صغير... إلى هذه الفجوة يهبط الإمام من على المنبر بين شيخ البلد على يمينه والكيخيا[1]. على يساره حتى إذا واجهها وقف وادى فريضة الصلاة. وتطل طاقات المسجد من جهتين على رواق يحيط بالمسجد يسمونه "الحظير" أما من الجهة الثالثة فهي تطل على بناية حجرية بيضاء تشبه المسجد من الخارج ولكنها في الواقع هي المقبرة أو كما يسمونها "تربة" وهي ملئيه بالأضرحة الجميلة لموتى أقارب الأسرة الحاكمة. وأمام باب هذا المسجد هنالك مدخل ثان من الخشب المشابك المشغول محفور على شكل مدهش، ومع بابين دارين من نفس النوع من أشغال الخشب، وعدد كبير من العوارض الخشبية التي يستقر عليها الجزء الأسفل من الشعارى وتكون كخلفية جميلة له، فنهبه منظر الأناقة الرقيقة وتجعله مبهجاً لعين الناظر إليه. وفوق جميع أبواب المسجد آيات من القران منقوشة ومدهونة أما الآيات التي فوق هذا الباب فهي مذهبة ومطلية بسخاء كما أن خط النقش هنا أجمل بكثير من مثيلاته في المدينة. وهناك مسجد أخر على مسافة ليست بالبعيدة من هنا، له باب هو أية في الغرابة من حيث صناعة الحفر على الخشب عند المغاربة ولقد انشأ الأثر الاستراتيجي على طرق التجارة من هذا الموقع الجغرافي المواتى فمن طرابلس كان هنالك طريق مجرى قصير نسبياً ـ ولهذا فهو أمين ـ إلى أوروبا، ماراً بجزيرة مالطة ثم صقلية. ولما كانت الايالة عند اقصر معبر للصحراء فقد ضمنت كونها مركزاً لثلاث طرق قوافل الأولى تتجه جنوبا عبر واحة فزان إلى

---

(1). وتعنى كلمة كيخيا بالتركية : المشرف او المراقب

بحيرة تشاد والثانية تتعطف جنوباً غرباً عبر غدامس وغات إلى تمبكتو الأسطورية، والثالثة تسير جنوباً شرقاً عبر واحة الجفرة، ثم سوكنه وزويلة إلى واداى ودارفور والسودان الغنى بخصبه وثرواته.

وكانت هذه القوافل سواء في زمن الرومان أو العهد البيزنطي، تنقل قدراً كبيرا من السلع من أفريقيا إلى أوروبا لكن سوء إدارة العرب واضمحلال الواحات، ثم الغارات البدوية المتكررة ضاءلت أهميتها بجعلتها الأكثر من مسارب لنقل العبيد السود من الجنوب، وترابة الذهب، وريش النعام، والعاج وبعض الضموع. وكانت صادرات البلاد الأخرى هي الصوف، والجلود واللحوم، ونبات الحلفا والخضروات إلى مالطة والملح المأخوذ من ملاحات قريبة من زوارة إلى البندقية. لقد زالت الاهراءات التى مونت روما بالقمح في العهود الغابرة والتي لا تزال آثارها مبعثرة في مختلف أطراف البلاد.

جوستاف ناختيغال "" إدريس أفندي – 1834 – 1885"

استمرت رحلته قرابة خمس سنوات ونصف انطلقت من طرابلس في 18 فبراير وانتهت في الأبيض كرد فان في النصف الثاني من 1874 وسلك في المرحلة الأولي طريق ترهونة بني وليد، وبونجيم سوكنه، وزيغن وسمنو وتمنهنت والجديد (سبها) وغدوة ومرزق ومنها قام برحلة إلى جبال تبستي وعبر القطرون وتجرهي ثم عاد إلي مرزق ليتوجه منها إلي كوكة عاصمة برنو ثم بلاد كانم شمال بحيرة تشاد و مضارب أولاد سليمان وغيرها من القبائل العربية ثم برقو العودة إلي كوكة ليزور باقرمي في حوض تشاد ثم وداي دار فور و يتوجه من هناك إلي الخرطوم، ثم القاهرة ليعود منها إلي أوروبا.

صدر له كتاب الأصل الألماني بعنوان " الصحراء وبلاد السودان " بحوالي **2500** صفحة وترجم في سبعينات القرن العشرين إلي الإنجليزية من جانب متخصص بالدراسات الأفريقية قام بتطوير معلوماته وربطها بالوضع الحاضر من خلال تعليقات وإضافات زادت من فائدته وتولي مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ترجمته إلى العربية ونشر الجزء الأول منه بعنوان الصحراء وبلاد السودان ويضم الكتابين الأول والثاني، ويتناول الكتاب الأول طرابلس وفزان اي تقارير ناختيغال عن انطباعاته ومشاهداته وأرائه بخصوص الأوضاع في هاتين المنطقتين من ليبيا في **1869 - 1870** وهي الفترة التي مكثها ناختيغال في طرابلس ومرزق وغيرها من الواحات في دواخل ليبيا.

أما الكتاب الثاني فأنه يتحدث عن زيارته لتبستي التي استغرقت قرابة3 أشهر أنطلق من مرزق إلي القطرون، ثم عاد في نهايتها إلي مرزق حيث أقام فيها حتى عام **1870** انطلق بعدها إلي كوكة عاصمة برنو.

ولما كان ناختيغال قد نظم رحلته في طرابلس فانه مكث فيها حوالي ستة أسابيع وشاهد أثناها معالمها وتعرف على الوالي ومساعديه في إدارة الولاية وعلى القناصل والتجار وسواهم ويقدم في الجزء الأول من كتاب الصحراء وبلاد السودان وصفاً دقيقاً لعمران المدينة ومؤسساتها السياسية والاقتصادية ويتسم وصفه بالدقة وهو جدير بان يقدم كما هو بحيث يمكن للقارئ مقارنته مع التقارير أخرى من نفس العام **1869** وهما تقرير الرحاليين رولفس والبارون وفون مالتسان فيقول ناختيغال ((ويبدأ من باب البحر شارعان، إحداهما يمر بجانب الشاطئ نحو الشرق بين سور المدينة المنخفض، حيث يمكن للمرء أن

يتمشى به متنزهاً، وبين مباني التجار والقناصل الاوربيين الرائعة، أما الشارع الثاني فإنه يمتد إلي داخل المدينة. وكانت الشوارع نظيفة ممهدة صلبة السطح خالية من الحجارة والنفايات، كما أنها خالية من المزابل وجثث القطط الصغيرة والتي كانت في تونس من المتعذر اجتنابها في كثير من الشوارع والأزقة.

وإذا ما تتبعنا شارع البحر والذي يمتد علي طول المدينة من جهة الشاطئ وشيدت عليه بيوت علي الطراز الأوروبي يتمتع ساكنوها بإطلالة رائعة عبر البحر كما يستمتعون في الوقت نفسه بالنسيم المنعش الذي يبلغها، فإننا ناتي إلي ميدان صغير أقيم عليه أحدث مبنى في طرابلس، برج الساعة، ويوجد في طابقه السفلي بعض الدكاكين ويمضى أمامه الوجهاء والأعيان ساعات فراغهم في مشاهدة صخب الشوارع، وتوجد في أعلاه ساعة وتظهر الساعات طبقاً للتقسيم العثماني لليوم وقدم الوالي في ذلك الوقت، علي رضا باشا، هذا الأثر الباقي إلي عاصمة الولاية التي أوكل إليه أمرها. هناك طريقان من ميدان البرج المشار إليه يوصلان إلي باب الخندق وباب المنشية إلي الجنوب الشرقي، كما توجد أيضاً بعض الشوارع التي تصل إلي داخل المدينة، ويوجد إلي جانب البوابة الأولي وبينها وبين البحر المبنى الحكومي الكبير(السراي) ولكن بدون شكل محدد، ويتاخم البحر مباشرة، وقد شكل بجدرانه الضخمة على الجبهة البحرية في وقته قلعة منيعة، وليس لهذا المبنى مظهر القصر وإنما قلعة راسخة قد فصلت عن بقية المدينة. لقد ترك كل قرن آثاره المعمارية على هذا المبنى بمفرده، ففي أحد جهاته يشبه برجاً بدون نوافذ، وفي مكان آخر يوجد به بيت

صغير أقيم على المصطبة العالية المهوية وهو خاص بالنساء ذو نوافذ ذات قضبان، ثم يقدم مرة أخرى واجهة بنوافذ من جميع الأحجام، وقد بني في أكثر المستويات اختلافا ومن هذا الإرباك ترتفع نافذة كبيرة حيث كان الوالي المذكور علي رضا باشا يفضل الجلوس.

يوجد في داخل القلعة علاوة على مساكن الباشا وبلاطه جميع المكاتب ومساكن الموظفين، ويبدو أنه ليس من اليسر أن يجد المرء طريقه عبر فناءاتها وممراتها وزواياها وأقواسها وأدراجها، وليس المكان بأكمله غير منتظم وغير ملائم فحسب، وإنما هو أيضاً مبنى يفتقر إلي الجمال، وعلى الرغم من ضخامته فإنه يعتبر مبنى متواضعاً رديئاً تماماً.

خصص الشارع الذي يصل إلي باب المنشية لبيع الخضروات والصناعات اليدوية الصغيرة، وبجانبه يوجد سوق الأرباع المقنطر حيث تعرض الأقمشة والملابس للبيع، ويستطيع المرء أن يشتري من هناك الغطاءات الصوفية الملونة والبرانيس والمنسوجات من بلاد الجريد التونسي أو في الغالب من جزيرة جربة التي استقر مواطنوها الصناع في مجموعات كبيرة في طرابلس.

وهناك شارع آخر يصل من ميدان البرج إلى شارع السوق الرئيسي، كما هو شأن جميع المدن الإسلامية على البحر المتوسط، أكثر الشوارع نظافة وأغناها وأكثرها متعة، إنه السوق المسمى بسوق الترك بتجاره البارزين من الأتراك والعرب الذين يجلسون في دكاكينهم الصغيرة، جادين ومبجلين ولا يمتدحون أبداً بضائعهم ولا يغيرون أسعارها، ولا يبدو بأنهم مهتمون بالبيع والشراء ويقضون يومهم في القيل والقال مع الجيران والزوار، وفي القراءة أو في أحلام

عديمة الجدوى بصمت غير مبال والتي تعتبر سهلة جداً بالنسبة للشرقيين. إنهم لا يعبأون بمنافسة العصر الحديث، التي غمرت سوقهم بالبضائع الأوروبية، وتشبه هذه البضائع بضائعهم علي نحو لا يقبل الجدل، والتي تتميز عنها بدون شك بنوعيتها الرديئة ولكن أيضاً برخص ثمنها إنهم يعيشون في عالم ذكرياتهم وأحلامهم. وكان اليهود إلي جانب هؤلاء يبيعون الأقمشة الصوفية والحريرية والقطنية التركية والعربية مع مشابهاتها من أوروبا، وهناك وكما هو الحال في كل مكان آخر، تناقض مثير للاشمئزاز مع جيرانهم المبجلين، فهم يحاولون إيجاد الوسيلة ليجذبوا إليهم ولسلعهم احتراماً هو في الغالب لا مبرر له. كما توجد هناك أيضاً دكاكين التبغ والنراجيل بأباريقها المشكلة علي نحو جميل، والسلطانيات وأكواب الشرب النحاسية، مع الروائح والعطور من اسطنبول والسجاد من جميع أقاليم السلطان. هنا وهناك مقاهٍ بسيطة بمواقدها وأباريقها وأكوابها الصغيرة وجدرانها العارية ومقاعدها الخشبية، كما توجد [مثل هذه المقاهي] في مداخل مواضع نزول للمسافرين، وتسمى فنادق كما في تونس، وتتكون من فناءات مستطيلة الشكل محاطة برواق مقنطر تفتح فيه حجرات منخفضة صغيرة بدون نوافذ مجهزة لتخزين أمتعة وبضائع المسافرين، وبها أبواب يصعب إحكامها. وتؤجر هذه الحجرات كمخازن للتجار الذين لا يعشون بالمدينة، وتوجد في الطابق العلوي أحياناً حجرات نوم لأصحاب البضائع.

ويعرف امتداد سوق الترك بسوق التوارزية أي سوق الخياطين، وكلهم من اليهود تقريباً، ومن هناك يأتي المرء إلي سوق الحرارة في أحد الجوانب وهو سوق

عمال الحرير، الذين تأتى من محلاتهم تلك الأقمشة الرجالية المستطيلة الكبيرة وهي نصف حريرية ويلتف بها الرجال وتحتل في طرابلس محل البرنس الأقل شيوعاً، وتعرف هناك بالحرام.

تنبض الحياة العامة في الأسواق، كما في البلدان الإسلامية الاخري، وإن لم تكن في طرابلس مفعمة بالحياة، فإنها علي الرغم من ذلك ملحوظة بمظهرها النابض بالنشاط. تعد طرابلس المنفذ الرئيسي للتجارة الغدامسية، أي موطنوا غدا مس الذين تهيمن تجارتهم علي الصحراء الغربية ويتوسطون في العلاقات وسطاء مع الطوارق، ولهم عملاء في بلاد السودان ويسافرون عن طريق توات إلي تمبكتو. ويميز تجار طرابلس بين بلاد السودان وبرنو، وابتدأوا حديثاً السفر إلي وداي. ونتيجة لذلك فإنه يوجد إلي جانب هؤلاء التجار زملاؤهم في التجارة من مختلف بلدان دو اخل أفريقيا، التاجر الغدامسي وهو يرتدي البرنس والأحذية المستدقة الرأس إلي جانب الطارقي الملثم وأبناء فزان إلي جانب السود من برنو وبلاد السودان والتبو ذوي الأجسام النحيلة.

يعيش الأثرياء حول هذا القسم من المدينة والأسواق الجيدة، في بيوت هي عموماً أقل جمالاً بكثير من تلك التي بتونس، مع هذا فإن تصميمها في الغالب متشابه. وتفتح نوافذ الدور الأرضي والعلوي علي فناء مفتوح مستطيل الشكل مرصوف بأحجار مقطعة أو بقرميد، ومحاط بصفين من الاورقة السفلي منها عادة من الرخام أو الأحجار الرملية أما العلوي فمن الخشب فقط.

يمر من هذه المنطقة عبر حومة غريان الطريق إلي البوابة الجنوبية وهي البوابة الوحيدة التي تقود إلى داخل البلاد، وهي التي تسمى الباب الجديد حيث

أنها لم تبن إلا حديثاً. توجد الحارة أوحي اليهود إلي الغرب منه بشوارعها المتشابكة وصخبها وأوساخها وروائحها الكريهة وأشكالها المتماوجة، بين سور الجنوبي الحي التعيس حيث المومسات وسوقهن الكاسد

يوجد إلي جوانب الحارة ذلك الجزء الإسلامي من المدينة حيث أتخذ المالطيون مسكناً لهم وأبرزوا طابعهم الخاص علي تلك المنطقة. ويعتبر هذا العنصر ممثلاً في جميع مدن طرابلس الغرب وتونس والجزائر الساحلية، وله أعمق العلاقات الودية مع السكان المسلمين ويتكشف عن نشاط لا يعرف التعب وفطنة تجارية رائعة واقتصاد استثنائي، من خلال نشاط هذا العنصر وتأقلمه فقد كان له أعظم الأثر بالنسبة لتطوير الحياة عموماً بهذه الأقاليم.

لقد كان المالطيون في طرابلس بأكملهم تقريباً من التجار، إن تنوع بضائعهم التي كانوا يتعاملون بها وصغر المساحة التي كان بمقدورهم تخزين سلعهم فيها، أمر من الصعب تصديقه حقاً. وتوجد لديهم الجعة البريطانية والنبيذ والتبغ التركي والسيجار الكريه ومناديل الجيب والأكواب والسراويل الجاهزة والقهوة والشاي والشمع والكبريت والقمصان والسكاكين والبرتقال، وتوفر كل شيء لدى هؤلاء الذين يمثلون مرحلة الانتقال من الأفارقة إلي الأوربيين إذا ما كان المالطيون أيضاً محط احتقار المسلمين إلا أنهم على الرغم من ذلك يتسامحون في وجودهم فيما بينهم، وفي كل مكان من الأجزاء الغربية للشمال الإفريقي تسود النظرة العامة علي أن المالطيين عرب قد أفسدهم الدم المسيحي.

ويمتد الحي الإسلامي الفقير إلي الغرب من هذه المنطقة حتى يصل كومة بين الخرائب التي كانت قبل أقل من عشر سنوات ماضية حصناً حصيناً دمر جراء

انفجار بارود مرعب وهذا يكمل الدائرة حول المدينة الصغيرة بأكملها. فقد شيدت طرابلس على نحو محكم، فلا توجد بها مساحات واسعة بدون مبان كما هو الحال بتونس حيث يوجد في الحقيقة أيضاً أزقة ضيقة عديدة، وكانت الشوارع في أحيان كثيرة مزودة بأقواس تعلوها حتى توحد بين البيوت علي الجانبين. وتسمى الممرات الضيقة بالمدينة كما هو الحال في تونس بالزنقة، أما الطريق الأكثر اتساعا فهو الشارع، في حين تعرف الشوارع التجارية أيضاً باسم السوق أي البازار.

إن المعلومات التي قدمها لي الرسميون فيما بعد حول سكان المدينة، وهي بالطبع لم تسجل هنا رسمياً، تتفق تقريباً مع تقديري الخاص بحوالي عشرين ألفاً. ويبدو أنه كلما صغرت المدينة كلما زادت نسبة العناصر الأجنبية، ويكون بروزها أكثر وضوحاً، و يختفي سكان طرابلس الليبيون الحقيقيون في وجه الأجانب، وقد فضلوا عندما أزداد عدد الأجانب أن ينسحبوا إلي بساتين المدينة التي تشكل قرية منفصلة بالقرب منها مباشرة. ومع هذا على العموم لا يعطون ذلك الانطباع لمثل هذا التمييز والنشاط كما هو الحال بالنسبة للسكان في تونس ويختلفون عنهم أيضاً في الملابس، وكما بدا لي بعد إقامتي الطويلة بتونس ليس ذلك الاختلاف بدون أية مزايا لمظهرهم.

لم يسر نظري السروال الفارسي، أعني سروال الخيالة، فهو واسع إلي حد ما حتى الركبة، ثم يضيق إلي أن يصل الكعب مثلما أعجبني السروال الجميل الواسع بطياته المقفولة المنتظمة الذي يرتديه التونسيون، والذي يأتي إلي نهاية مقفولة تنطبق علي المقاييس إلي تحت الكعب، وكما أن عادة ارتداء الجزء

الأسفل من القميص فوق السروال لم تعجبني أيضاً إن الصدرية والبدعية والرحيليلة هي حقيقة من التفصيل التونسي، بيد أن لونها وخفة قماشها القطني وتزيينه برسوم زهرية علي نحو ثخين، قد أعطى دليلاً علي أن الذوق الطرابلسي أكثر بداية من جيرانه الغربيين الذين صنعوا الأثواب نفسها من قماش بحواش زخرفية أو بتطريز خفيف.

أما الجبة المحترمة والجذابة جداً التي تريديها الطبقات الغنية في تونس، داخل البيوت وكذلك خارجها، فهي نادراً ما ترى في طرابلس، وهي كالبرنس التونسي والجزائري فغالباً ما يستبدل بها الشال (ويقصد به هنا الحولي والجرد)، حيث يحب الطرابلسيون أن تلف به رؤوسهم وأكتافهم. والشال الأنيق (الحولي) الذي يلبس في تونس تحت البرنس، ينسج من الصوف الناعم، مناسجاً مع خيوط من الحرير الأبيض أو موشحاً بخيوط حريرية، ويصنع في جزيرة جربة أو في بلاد الجريد، كما انه شائع بين أولئك الذين لهم ذوق رفيع في ارتداء الملابس الفاخرة إن لهذا الثوب شهرة قد ذاعت في أفريقيا فيما وراء الإقليم الشمالي، وحتى في برنو ولاحظت بأنه يحوز علي إعجاب واسع تحت اسم الجريدي الذي اشتق من موطنه الأصلي. كما أن النساء تلبس شالاً (حولي) مشابهاً بيد أنهن كثيرات الوساوس والشكوك فيلففن أجسادهن به حيث أنه في الوقت نفسه يقوم مقام الحجاب الذي تلبسه في العادة النساء العربيات في المدن الساحلية، كما تترك النساء المحجبات فتحة صغيرة حتى تمدهن بالوسيلة الازمة للرؤيه من خلالها حتى يتمكن من إيجاد طريقهن. يعتبر القورغلية المنحدرون من أصل تركي الذين استقروا بالبلاد منذ عدة قرون،

والذين هم من نتاج زواجهم بالنساء العربيات أكثر عددا من أولئك السكان الوطنين الأصليين في طرابلس، وهم الآن أيضاً يشبهون في ملابسهم سكان المدينة التي أشير إليها أعلاه، وهم أيضاً قد جردوا من التأثير والنفوذ. واستقر كثير منهم بالمنشية وهي قرية بها بساتين تتبع المدينة، ولم ترتبط بالحكومة إلا بالمدى الذي كان يشكل مصدر جنود الخيالة غير النظاميين، ولهذا السبب لا يدفعون الضرائب. ولابد أن عدد القورغلية قد ازداد تدريجياً منذ أسس العثمانيون سلطانهم علي الساحل في شمال أفريقيا، وكانوا أثناء حكم الأسرة القرمانلية خلال القرن السابق، أكثر العناصر أهمية وأكثرهم تأثيراً في السكان. ولم يسمحوا للسكان الأصليين إلا نادراً فقط في الحصول علي أية سلطة أو اعتبار، وحتى اليوم عندما تنصب إدارة تركية صرفة، ويدفع بالقورغلية أنفسهم بعيداً عن الأضواء فإن غرورهم بالاستعلاء على الأهالي مازال جلياً.

إن السلطة الآن في أيدي الرسمين العثمانيين بالكامل تحت حكم وال، عادة ما يكون مشيراً وهي رتبة أعلى من رتبة لواء لفرقة عسكرية. رغم ان عدد الرسميين محدود نسبياً إلا أنهم يبرزون في المقدمة بسبب قلة عدد السكان انهم ثقلاء بما يرتدونه من سترات سوداء مصنوعة من الجوخ ذات الياقات المنتصبة الاسطنبولية، وأحذيتهم اللامعة بأقدام مسحوقة وطرابيشهم التركية بلونها البني الأحمر الباهت وشراباتهم الخفيفة غير أن مظهرهم قد بدا لي كريهاً جداً مقارنة بالقبعات التونسية التي لا تضاهي في صبغتها وزينتها الزرقاء الجميلة الفخمة.

إن التونسيين من أبناء جزيرة جربة يخلفون انطباعاً طيباً وقد شكلوا مجموعة كبيرة تقيم في طرابلس فهم صناع وأذكياء، ولهم بناء جسماني جيد وهندام حسن، ويملكون قسماء كبيراً من دكاكين الأسواق.

كما في تونس، يشكل اليهود أيضاً في طرابلس قسماء كبيرا من السكان، وربما نصل نسبة عددهم في كليهما إلي الربع. إن الفرصة التي أتيحت لي لعقد مقارنة بين السكان اليهود في المدينتين، كانت سطحية إلي حد بعيد، وأظهرت مع هذا بأنها في صالح اليهود في تونس، حيث يصادف الملاحظ بين الفئة الأخيرة أجساماً شابة رائعة في كل مكان، ومثلما تعود مثل الأوروبي في بلاده، فإنه يشاهد بانذهال جمال الفتيات اليهوديات في تونس الذي لا يفوقه جمال. وفي الحارة في طرابلس تسود القذارة والروائح الكريهة نفسها دون أن يجد الزائر في هذا الحي أي تعويض لذلك النمو الجيد الذي يتلألأ في أزهي الألوان بين الفتيات والفتيان. أما فيما يتعلق بإخلاصهم في الطريقة التي يدعمون بها بعضهم بعضا وسخائهم بالنسبة للأفراد الآخرين في دينهم، وتمسكهم بدينهم، وولعهم بالجدال والمناقشة، فإنهم يبدون وكأنهم مثل أخوتهم في الغرب تماماً.

ونأتي أخيراً إلي الأوروبيين، ومعظمهم من المالطيين الذين يمثلون أكثر الموالين إخلاصاً والداعمين نشاطاً للبعثة الكاثوليكية التي أنشئت في طرابلس بإشراف الأب بريفيتو(Padre Prefetto). لقد وصل المالطيون إلي طرابلس، كما كان ذلك في جميع بلدان الشمال الإفريقي، بدون أن تكون لهم أية ممتلكات، بيد أنهم في الغالب ونتيجة لازدهارهم الاستثنائي واقتصادهم في الإنفاق ومهارتهم وحذقهم ونشاطهم المتواصل الذي لا يضارع قد تمكنوا

خلال عشر سنوات من تجميع ثروة ضخمة. واستمرت التجارة تمثل نشاطهم الأساسي، ولكنهم كانوا أيضاً بارعين في الزراعة بالمستوي نفسه، مثلما كانوا بحارة ومربي مواشي، وكانت قدرتهم علي الإنجاب وكثرة أطفالهم مذهلة. وأما الطبقة الرفيعة من الأوروبيين فإنها تتشكل من القناصل وموظفيهم وأغنياء التجار الذين استقروا في طرابلس.

وكان علي، وقبل كل شيء، أن أتعامل مع الأوروبيين ومع الوالي علي رضا باشا، فقد قصدت فوراً القنصل النمساوي لويجي روسي Luigi Rossi الذي كان يمثل ألمانيا أيضاً، وكان معروفاً لدى الأهالي باسم جيجي. وكان يعيش علي طريق البحر في واحد من أفضل البيوت هناك، وهو رجل في ربيع العمر، ويبدو وجود الشيب فيه قبل أوانه، ذو بنية جسدية قوية ووجه مستدير متورد. لقد استقبلني بحفاوة وهذا أمر شائع وناجع في الخارج، ويمتاز بذلك الإيطاليون وشباه الإيطاليين علي وجه الخصوص، ولم تكن مهنته قنصلاً بل كان تاجراً ولد في تريست، وقد أمضى كل حياته تقريباً في طرابلس، وكان ذا معرفة جيدة بالبلاد وسكانها، وقليلون هم من يجارونه في ذلك. ويحيط به مجموعة من الأطفال الأصحاء إنه رجل ثري ومحترم، وكان يعيش في ذلك الوقت في سعادة ورضاء، وهو يغبط على ذلك. وعندما نجوت فيما بعد من الأخطار بأعجوبة، ورأيت البحر المتوسط مرة أخري بعد مضي عدة سنوات، وجدت أن قدراً لا يرحم قد طرحه على فراش المرض الذي لم ينهض منه مرة أخرى، ولم يسمح برؤيته ثانية.

وعندما كان جيرهارد رولفس[1] ينتظر عودتي من مالطا، وفرصة لمغادرة طرابلس كان يسكن في بيت روسي الصيفي بالمنشية وقد ذهبنا لرؤيته هناك فوراً. أمام البوابة كان عدد من الحمير الجاهزة لتأمين المواصلات إلي مزارع الواحة المزدحمة بالسكان، ولم تكن الخيول عديدة في طرابلس، أما العربات. فهي أقل بكثير، وكانت العينة الوحيدة من الأخيرة تلك التي كانت تستخدم في ذلك الوقت للأغراض العامة، مما استورده مالطي نشيط وهي عبارة عن عربة خفيفة ذات عجلتين بكرسي طويل شائعة الاستخدام في بلاده. وتدعي الحمير هنا بالكلمة العربية الصحيحة حمار، وليس باسم بهيم (بالمفرد) كما في تونس، ولا يبدو أن هناك من يستحي من ركوب الحمير، علي الرغم من أنها كانت متمثلة في عينات تبدو من النوع التعيس مقارنة بالحمير المصرية أو حتى المالطية، وكان حوذيها يحثها بصورة مناسبة فوصلنا المنشية بسرعة جديرة بالثناء.

لقد سرنا في البداية عبر الميدان الرملي الكبير حيث يقام سوق أسبوعي شامل[2] والذي يخدم أيضا كمتنزه للأوروبيين ممن لا يرغبون بالبذخ، ثم توجهنا نحو شاطئ رملي وسرعان ما وصلنا إلي منزل القنصل الصيفي علي حافة الواحة والتي قد أعيد استصلاحها بصعوبة من الرمال. ولا يمكن في الواقع وصفه بأنها داره مترفة مثل تلك التي تنتشر في الضواحي القريبة من الجزائر أو مثل

---

(1) انه الرحالة غيرهارد رولفس 1831 - 1896 الذي كان يزور ليبيا للمرة الثالثة وفي هذه المرة لتامين إرسال هدايا ملك بروسيا إلى سلطان برنو

(2) ـ يقصد سوق الثلاثاء

بساتين منوبة والمرسى في تونس فهو بيت صغير بسيط مناسب لقضاء يوم كد في زراعة النباتات بيد أن رولفس جهزه تجهيزا مناسبا بحيث يعيش بضعة أسابيع على وجه مريح. فقد الحق به خادماً ألمانياً علىٍ جريئاً وأخذ يعمل طباخاً. بينما تولى تدبير شؤون المنزل الأخرى مصور شاب من برلين والذي سيرافق بعثة رولفس إلي برقة لغرض التقاط الصورة.

لقد بدا لي أن أبناء وطني لم يعاملوا الرجل المحترم محمد القطروني بالاهتمام اللائق فهو رفيق بارت في رحلته إلي تمبكتو وهو الذي صحب أيضاً رولفس إلي برنو ومندرا، كما أنهم لم يهتموا بجمله الأبيض الطارقي الذي أحضره إلي بلاده من برنو خلال رحلته الأخيرة لقد جاء من موطنه فزان من اجل مرافقتي، حيث كان يعيش بالقرب من العاصمة مرزق في القرية دو جال، وكان مشغولاً في تهيئة حوية الجمال للرحلة الوشيكة، نظرت إلي وجه الأسود المستدير بشيء من الرهبة المتسمة بالاحترام بتجاعيد التي لا تعد ولا تحصى، وأنفه الأفطس بمنخرين واسعتين، وفمه الخالي من الأسنان، وشعر ذقنه الأبيض ولأسود الخفيف، وأذنيه الكبيرتين وعينيه الوفيتين.

لم يكن الرجل المسن محمد كثير الكلام كما لاحظت من مناسبات متكررة خلال السنوات التي تلت لقائي به، وكان رجلاً ودوداً، ولم يكن عازفاً عن الاستماع بمباهج الحياة، ومع هذا بحساسيته البالغة، وخبراته الواسعة واتزانه نادر اما يسمح أن يضطرب أو يشوش. وأجاب بوقار علي تحياتي وعلي تعبيراتي بالسعادة بمعرفته الشخصية مستغلاً توقفه عن عمله بأن يدفع في فمه بمقدار ضئيل من أوراق التبغ الأخضر الذي دق دقاً خشناً من كيس جلدي صغير،

وبأن يقطع قطعة بما تبقى من أسنانه من كتلة نطرون (طرونة) كعامل إصلاحي مناسب للتبغ. ويلبس فوق القميص الواسع المألوف في موطنة غطاءً صوفياً دافئاً والذي هو أيضاً معتاد في فزان، وهو الآن يتدلى على ظهره بعيداً عن رأسه المقصوص الشعر قصاً قصيراً حتى لا يعيق عمله، عندما كان يجلس القرفصاء على القش الذي كان يحشو به الحوايا.

تم شراء ستة جمال أثناء غيابي في مالطا، بسعر بلغ 50 ريال ماريا تيريزيا (بوطير) أو 200 مارك لكل جمل، وحتى وإن لم تنل إعجاب محمد القطروني الخبير الضليع في الجمال، وعلى الرغم من ذلك فقد رؤي بأنها كافية بالمراد. وكانت الحوايا تقترب من نهاية الانجاز وكان على محمد القطروني أن يذهب إلى السوق الأسبوعي القادم ليشتري المعدات اللازمة من الحبال والأكياس التي ستوضع فيها أحمال الجمال وأفضلها ما يصنع من وبر الإبل، وحينذاك تسمى غرارة، وقرب الماء (مفردها قربة) التي هي عبارة عن جلد الماعز المدبوغ من الداخل بحيث يترك الشعر عليه وتعتبر قرب بلاد السودان ذات جودة لا تضاهيها نوعية أخرى. كما كان علينا أيضاً أن نحصل علي أواني الطبخ والطعام اللازمة للرحلة مثل بعض الأوعية النحاسية المبيضة، وحامل ثلاثي القوائم، ووعاء عريض مسطح مطلي بالقصدير بحيث يستخدم لغرضين، سقي الجمال وإناء للغسيل، أو ربما حتى قصعة للطعام، ودلو من الجلد لسحب الماء، وألجمة للجمال، وما شابهها من عدة السفر الضرورية التي يسبب غيابها مصاعب كبيرة في الغالب للمسافرين ولا ينسى في العادة المسافر المتمرس منها شيئاً. لقد كان علينا نحن الأوروبيين أن تتولي مسئولية الحصول علي هذه

الاستعدادات الخاصة بالرحلة، وقررنا بأنه في نهار الغد، بعد أن وضعت القائمة بالحاجيات، أن نناقش كل شيء يتعلق بها في ساعات مساء هادئة مع السيد روسي.

وفحصنا في اليوم التالي هدايا ملكنا، حيث تركت في طرودها الأصلية التي تنسجم مع الاعتبارات الضرورية لنقلها علي الجمال، كما ناقشنا مع السيد روسي كيفية تأمين احتياجاتنا التي تشتمل علي البسكويت (بوقسمات) والأرز والكسكسى والقيام بزيارات إلي أغلب الأوروبيين البارزين والموظفين الحكوميين الكبار.

ينطوي القيام بالواجبات الأخيرة علي صعوبات جمة نتيجة للانقسامات الاجتماعية العميقة المضحكة، التي جعلت حياة الأوروبيين صعبة على أنفسهم.فهناك في البداية الممثلون الرسميون للقوى المسيحية، والقناصل العامون، وقناصل ووكلاء قناصل انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا وهولندا وأسبانيا وكانت نظرتهم للسيد روسي تتسم بالريبة بسبب نشاطاته التجارية، علي الرغم من أن ارتباطاته التجارية قد جعلته يتمتع بمكانه محترمة بين الأهالي. كما كانت تعيش في طرابلس منذ سنوات طويلة عائلة ديكسون Dickson التي ترتبط بعلاقة مصاهرة مع من تبقى من أسرة القنصل الانجليزى السابق المعروف بخدماته العقيد وارنجتون Warrington كما كان هناك أيضاً قاقليوفي التاجر ووكيل القنصل الإنجليزي Gagliuff السابق في فزان وهو معروف جيداً من كتابات بارث، الذي كان يرتبط بممثلنا، أما الأوربيون الآخرون الذين يستحقون الذكر هنا فهم رئيس محطة التلغراف

الإنجليزية التي تربط بين مالطا وبنغازي، وفريدريك وارنجتون Frederick Warrington أبن القنصل العام الذي ذكر أعلاه، وهو معروف كذلك من تقارير بارت وفوجل، ورئيس البعثة الكاثوليكية الأب بريفيتو، وتاجر ريش النعام الإيطالي.

أما فيما يتعلق بقاقليوفي فقد أشيعت عنه قصص غريبة حول اشتراكه في السابق في تجارة الرقيق، وكان له مع شريكه الحاج العامري المعروف في مرزق، له وكيل تجاري وشريك في برنو يدعي محمد الصفاقسي هو معروف أيضاً في تقارير بارث ولقد أضرت هذه القصص التي ابتدعت لغرض إيقاف هذه التجارة فقط بمركزه الرسمي في فزان ومن الطبيعي بان لهذه التقارير التي ذكرت أساسها في الارتباطات التجارية، وبالتأكيد لا يستطيع الحاج العامري ولا محمد الصفاقسي مزاولة أية تجارة في السودان بدون شراء وبيع الرقيق. ومن خلال رأس المال الذي ساهم به فقد كان قاقليوفي مشتركاً في ذلك بطريق غير مباشر، بيد أنه إذا ما كانت هذه العلاقة لتمنع فإنه يتوجب علي جميع التجار الأوربيين الذين لهم أية مصالح مادية في البعثات التجارية للأهالي أن يتحملوا اللوم نفسه. لقد كان قاقليوفي يتمتع بالاحترام التام بين تجار طرابلس وفزان وبرنو، وكان الأوروبي الوحيد الذي يعرف تماماً الأوضاع في الداخل الأفريقي، وكان لنصائحه وتوصياته أعضم الأثر علي. كان فريدريك وارنجتون شخصية طريفة، فقد كان الأطرف والألطف وأكثر رجل متواضع في العالم، إنه ثقة في معرفته كل ما يتعلق بالطباع العربية واللهجة العامية العربية وعادات فزان والسودان كما كان يتحدث لغة أهل برنو. لقد كان في الحقيقة منهمكاً تماماً في الشؤون

الأفريقية، ولا يمكن أن يوظف إلا قدراً متواضعا جداً من خبراته في القنصلية البريطانية العامة.

بعد أن تجنبنا مخاطر العلاقات الاجتماعية العديدة بسلام، حيثما استلمت التقارير عن أسباب هذه الخلافات المعقدة، وتجنبت بعناية الجمع بين المسئولين المتخاصمين مع بعضهم، بدأنا بمساعدة السيد روسي في الاتصالات الضرورية مع المسؤولين الطرابلسيين، ولم يكن هذا أيضاً خالياً من المصاعب، ولم تتم الاتصالات إلا من خلال بعض التحفظات من جانب القنصل الذي كان على خلاف بين مع الوالي نفسه وشيخ البلد أو عميد بلدية طرابلس علي القرقني السيئ السمعة.

إن علي رضا باشا عربي جزائري، تعلم في فرنسا وتدرج في المناصب في تركيا ووصل إلي رتبة مشير، ولم يتول منصب والي طرابلس الغرب إلا حديثاً[1]، حيث يبدو بأن الحكومة العثمانية قد تبنت في كل مكان مبدأ سرعة تغيير الرسميين في جميع المناصب بقدر الامكان. وعلى هذا، فقد كان كل جهد جدياً تقريباً، وفي الواقع أية رغبة صادقة من جانبهم لتحسين رفاهية الولايات التي عهد بها إليهم وهمية، وحتى إذا ما أراد النادر منهم أن ينغمس في مثل هذه المحاولات فإنه سيكون طوباوياً مثلما سيكون في الوضع الإداري العثماني. وكان يبدو بأن موظفاً كبيراً يعين في غير بلده يستغل العامة وبأقصى سرعة ممكنة، ليجعل مقامه المؤقت لصالحه، والذي ينظر إليه علي أنه نوع من العقاب، وسيغادره خلال سنوات ممتلئ الجيوب إما نتيجة لتنامي استياء المواطنين

(1) - حكم في ولايته الأول من 1867 - 1870

المنهوبين، أو بسبب أن أصدقاه لدى الباب العالي قد استدعوه ليعود إلي فردوس اسطنبول أو ساعدوه في أن يرتقي مناصب أكثر سمواً.

لقد كان علي باشا، بسبب أصله العربي، أقرب من الولاة الآخرين لسكان الولاية، وكان دائماً في الواقع من المفضلين للتقدم والحضارة وأكثر من معظم سابقيه، بيد أن هذا لم يكن عميقاً بالقدر الذي يمكنه من تفادي الصخرة التي تحطم عليها ما شابهه من الرجال. ويقدم خديوي مصر إسماعيل باشا على نطاق واسع مثالاً مليئاً بالعبرة عن الأسباب التي تجعل خطط الإصلاح والتحضر في هذه البلدان تنتهي في الغالب إلي إخفاق تام يبعث علي الأسى، حتى وإن شرع فيها بفهم كامل للخطط وفوائدها وبوسائل ملموسة، فبناء المنزل لايمكن أن يبدأ إلأ من أسفل وعلى أساس متين، ولا يمكن أن يكتمل إلأ وفقاً للعمل والوسائل المتوفرة. إن أمراء الشرق وحكامه لا يهتمون في الغالب إلأ قليلاً بالأساسات القائمة فلا يأخذون في الحسبان الحقائق كما هي، بل يبنون في فراغ بأساسات غير كافية ومواد ضئيلة القيمة وبدون براعة المساعدين، وبسرعة أكبر ينهار جانب من البناء أكثر مما أنجز في الجانب الآخر، وفي نهاية الأمر يتحتم التخلي عن المشروع بأكمله نتيجة لانعدام الوسائل والعمال.

لم يتمتع إلا القليل فقط بذكاء ودهاء الخديوي وطموحه النبيل، حيث كان فهم الكثير منهم للحضارة مقصوراً علي معرفة فرنسية ضعيفة، وميل نحو تقليد الأزياء الباريسية، وإلحاح لا يقاوم للحصول علي الزخرفة الأوروبية، أو في أفضل الأحوال، إقامة قناة مائية أو محطة إضاءة بمصابيح غاز أو خط تلغراف أو مد سكة حديدية، ويذرون بهذه الإنشاءات التراب في عيون الأوروبيين

الذين يعيشون بينهم أو السواح، وعندما يقرأون المديح الذي غالباً ما كان يقدم في الصحف الأوروبية، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون أنفسهم مصلحين عظماء في حين وان لم يكونوا في الحقيقة إلا مقلدين تعوزهم البراعة. وإذا لم يتفتق الإبداع من الضمير واحتياجات السكان مع دعم المتعلمين، فإن الإصلاحات حينئذ تكون سريعة الزوال، عديمة الفائدة ومظاهر مكلفة.

كان الوضع في طرابلس الغرب، وعلى الرغم من فوائد التحضر التي منحها للبلاد، فإن السكان متذمرون منه جهازاً، ومن مساعديه وشركائه في المناطق المختلفة. فقد حفر الآبار الارتوازية، واستقدم إضاءة الشوارع إلي مدينة طرابلس، وأوجد مدرسة حيث تدرس التركية، كما أقام مزارع في المنطقة القاحلة حول طرابلس، وعندما كنا هناك كانت تدرس إمكانية إقامة مستوطنات في أقصى شرق الولاية، في هضبة البطنان على خليجي بومبه وطبرق، وأعتقد بأن النجاح مضمون بافتتاح قناة السويس. ولقد ذمرت الآبار وأصبحت خراباً، ولم تحقق المدرسة شيئاً، أما المزارع الكبيرة فلم تر النور أبداً ولم تعمر إلا إضاءة الشوارع المتواضعة بعد منشئها، في حين لم يتعد المشروع الطموح لإقامة المستوطنات والذي كان ليضمن شهرة على رضا مر السنين مرحلة الأولى وقضى عليه في مهده. وكان من بين المحسوبين على الوالي وأكثرهم مكراً وخطراً، والذي أصبح نكبة على البلاد، شيخ البلدا أو عميد بلدية طرابلس الذي سبقت الإشارة إليه، المدعو علي القرقني نسبة إلي جزيرة التونسية قرقنة التي جاء منها. فقد سلب ونهب البلاد الفقيرة لعدة سنوات، وكان أقوى وأغنى رجل في المنطقة، حيث يمتلك عدداً لا يحصى من البيوت في

المدينة، وله سفينة بخارية تسير بين طرابلس ومالطا، كما كان يرسل الهدايا الثمينة سنوياً إلي عظماء العاصمة باسطنبول، وكان جميع الرسمين تحت هيمنته ويركعون له، كما كان جميع المواطنين يخافونه ليس بأقل من مقدار كراهيتهم له، وكانت هيئة المحاكم من صنائعه كما كان جميع موظفي المدينة من مأجوريه، وتمر جميع ضرائب البلاد من تحت يده، حيث يحتفظ منها في الحقيقة بمقدار كبير لنفسه. وفي الواقع لم ينهب البلاد وسكانها أي شخص رسمي على هذا النحو من الصفاقة وطول الفترة مثل على القرقني إلا نادراً، ولا توجد أية وسيلة للتعبير بفاعلية عن الحقد العام الذي كان يكن له، كان علي رضا باشا حامية، وكان ألعوبة في يده حيت يعتبر أقل منه دهاء، وكان عظماء اسطنبول أصدقاء أعزاء، كما كان القضاة من صنائعه.

أصبح السيد لويجي روسي وكنتيجة لأعماله التجارية وطول إقامته بطرابلس مقرباً جداً من السكان، ويستطيع أن يحكم على الآثار المؤذية لهؤلاء الرجال أفضل مما يستطيع قنصل حاقد على الرفيقين الخطرين وما يعتبر أشد من ذلك أنه ليس خائفاً من أن يسمح بظهور مشاعره نحوهما، ولهذا السبب كان عليه أن يجهد نفسه بأقصى ما يمكن ليحترم الأعراف والتقاليد الظاهرية والزيارات الأولى التي قمنا بها معه إلي الوالي وشيخ البلد. ولقد كانت زيارات رسمية ولم تقدم لي أية فائدة، فقد وزعت السجائر ودخنت - حيث احتلت السجائر الآن محل التمباك السابق لمدة طويلة - كما أحضر القهوجي، بمنديل على ذراعه، فناجين صغيرة فوق صحونها على صينية نحاسية، وجرى الحديث مع الوالي باللغة الفرنسية ومع شيخ البلد باللغة العربية. وكان الوالي رجلاً عجوزاً

قصير القامة عريض الكتفين وله وجه احمر، يبدو بأنه قريب من الستينيات من عمره، ويرتدي بذلة غير رسمية، ويدخن سجائره في أنبوب فخم ينتهي بالجزء الذي يوضع في الفم من الكهرمان الجميل، ويتحدث الفرنسية بطلاقة، وقد كشف لي عن خططه الإصلاحية والتحضيرية العظيمة، ولكنه لم يكن مشجعاً لأهداف رحلتي وكان لعلي القرقني وجه ((مدور)) أبيض أو بالأحرى شمعي اللون بلحية سوداء مكتملة، متناسق التقاطيع، وعينين سوداوين لامعتين على نحو غير مريح، مع قوام متماسك قوي متوسط الطول، وكان الحديث معه مقيداً ومقتصراً علي الرسميات الفارغة ويتعلق بمالطا وعبور البحر المتوسط والطقس والسياسة الأوروبية. لقد كان انعدام الثقة بين هؤلاء الرجال المرهوبي الجانب وبين السيد روسي، وفي الحقيقة بيني أيضاً، واضحة تماماً ولم تستهوني هاتان الشخصيتان علي الإطلاق، حيث أنهما نمطان قد عرفت عنهما الكثير من خلال تجربتي التونسية، فقد كان النظام في تونس أكثر نهباً، بيد أن البلاد كانت أغنى أيضاً، أما فيما يتعلق بموارد البلاد فلم يكن النظام في طرابلس الغرب بكل تأكيد أقل ضخامة.

كانت الآنسة الكسندرينا بترونيلا فرنسينا تينه Alexandrina Petronella Tinne francina بدون شك، الأكثر طرافة بين الشخصيات ممن تعرفنا عليهم في طرابلس، وهي من مواليد لاهاي في يوم 17 أكتوبر 1834، وكانت مشهورة من خلال رحلاتها إلي إقليم أعالي نهر النيل، وقد حاولت بدون جدوى أن تتغلغل نحو الجنوب من الأراضي الجزائرية إلي منطقة الطوارق وجاءت إلي طرابلس قبل وصولي بوقت قصير ومعها عدد كبير من

المرافقين من أجل أن تتمكن من السفر إلي فزان وما وراءها. وأظهرت هذه الآنسة عدداً من البراهين على طموحات نبيلة وتصميم أكيد، وقد تحصلت على مثل هذه التجربة العريضة على الرغم من الخسائر الموجعة التي حلت بها أثناء رحلاتها السابقة (حيث أن أمها واسمها فان كابلينvan Kapellen وخالتها أدريانا فان كابلين قد توفيتا في بحر الغزال نتيجة لآثار المناخ غير الصحي) وتشبثت بأهدافها على نحو لافت للنظر، بشجاعة متجددة لدرجة أنها بدأت الطريق نفسها التي اختارتها الآن لتحقيق غاياتها، وهي سيدة قد ملأت نفسي

في البداية باحترام خجول فقط ولم يغير اجتماعي بها في طرابلس هذا الشعور. وأن ملامح النبل وتقاسيمها التي تبدو باردة وسلوكها المتحفظ المتميز، وأدهشت أي شخص وضع نصب عينيه سيرتها المليئة بالمغامرات والتي تخص الرجال وحدهم، وكل هذا يدعو إلي الاعتقاد أنها متحررة. ومن يرى ذلك فقد خاب ظنه. ووقع في خطأ أنساق إليه في إثر المعرفة السطحية. وتضم مجموعتها ملاحين هولنديين هما كيس أوستمانز kes Oostmans وآري ياكوبس Ary Jacobse وبعض الزنوج من أعالي نهر النيل الذين تمتلكهم، ونساء جزائريات وعربا من تونس والجزائر، وزنوجاً معتوقين كان يحدوهم الأمل تحت حمايتها في العودة إلي موطنهم وأدولف كرا وزه ADolf Krause وهو شاب ألماني قد ترك دراسته الثانوية بألمانيا نتيجة لحماسه للسفر في أفريقيا، ووصل في طرابلس إلي القارة التي شكلت مصيره. وقد ذاعت أخبار ثروة تينه في المدينة، وفي ذلك الحين كانت تعرف باسم بنت الري فقط أي بنت الملك، وهو اسم احتفظت به حتى موتها المأساوي. إن ثروتها الوافرة وحاشيتها الكبيرة المتنافرة

جعلتني أستبعد فكرة رحلة مشتركة إلي مرزق محطتنا التالية، وحيث أنها قد أنهت استعداداتها فقد تركتها تبدأ رحلتها، علاوة على أن الأمن كان سائداً في مناطق طرابلس الغرب مما يسمح لها بأن تقوم بالرحلة بمفردها.

ذهبت مع محمد القطروني إلي السوق الأسبوعي، حيث كان عليه أن يقوم بشراء بعض الحاجيات لتجهيز رحلتنا، وكي أستفيد من خبرته. وكانت العملة المتداولة آنئذ الغرش العثماني الذي يتكون من قطعتين فئة العشرين بارة ويدعى بوعشرين كل عشرين غرشاً يساوي محبوباً وهو وحدة عملة وهمية إلا أنها الأكثر تداولاً في الحسابات وتقوم على أساس الغرش العثماني. وتأتي بعده من حيث الشيوع في التداول قطعة من فئة خمسة فرنكات الطالر متوسط وقيمتها حوالي 23 قرشاً، ثم تليها ريال ماريا تيريزيا النمساوية، أبو طير وقد سمي كذلك بسبب وجود نسرين علي وجه القطعة، وكانت قيمته تختلف طبقاً لسعر التصريف من 23 إلي 25 قرشاً، كما كان هناك أحياناً بعض التنافس الفعال من الطالر الأسباني colonnateأي أبو مدفع وسمي كذلك لوجود أعمدة هرقل على أحد وجهي القطعة والتي أعتبرها العرب مدفعاً.

كما أن غرشين ونصفا عثمانيين أي خمسة أبو عشرين، قد سميت عندهم بالغرش العربي في حين أن ثلاثة غروش عثمانية أو ست قطع ذات العشرين بارة تسمى سبيلي. وبعد أن ننجز نهاراً الأعمال والزيارات الضرورية، كنا نعود عند المساء إلي منزل مزرعة السيد روسي الصغيرة، ونجلس أثناء الليل مع جعتنا أو نبيذنا الألماني في حين كان جيرهارد رولفس يحكي لنا قصصاً لا تنفد من تجارب رحلاته، كاشفاً لي عن أحوال وشخصيات العالم الجديد الذي سأراه

عما قريب. واعد تلك الأمسيات في ذلك الريف الهادئ من بين أكثر الأيام متعة في حياتي.

وفي النهاية أصبح كل شيء جاهزاً للرحيل، وكان معنا حوالي قنطار من البسكويت والكسكسي والأرز، كما لم ننس شحم الخراف والملح والفلفل، كما حزم التبغ والسيجار والكبريت الذي سيكفي لبعض الوقت. بادئ ذي بدء تخليت عن المشروبات الكحولية تماماً، حيث سيصبح ذلك على أية حال في القريب أمراً لا يمكن اجتنابه، علاوة على أنها غير ملائمة للنقل أثناء السفر، بيد أنني أحضرت معي الشاي والقهوة والكاكاو وخلاصة اللحم من مالطا. وكانت في صناديقي عدة مئات من ريالات تيريزيا، ومبلغ من أبوعشرين من أجل قطع النقد الصغيرة، وكان معنا شمع شحم حيواني وفنارات. كما تم شراء أوتاد للخيام وحبال ومسامير ومطرقة ومنشار، وإذا ما نسينا شراء شيء ما، كما هو الحال تقريباً في بداية أية رحلة طويلة، ستكون الفرصة دائماً أمامنا لإكمال تجهيزاتنا علي طول الطريق.

لقد أعطاني علي رضا باشا فرماناً مفتوحاً إلي الدوائر المحلية ولكنه مع هذا فاتر جداً، وعين معنا شرطياً (زابطي) يدعى ميلاد عبية مرافقاً رسمياً لي. ونقلنا إقامتنا قبل سفرنا الفعلي بعدة أيام إلي المدينة وهناك قمت ببعض زيارات الوداع، كما كتبت رسائل الوداع إلي أرض الوطن، في حين دعا جرهارد رولفس الجالية الأوروبية والرسميين في طرابلس إلي نزهة ممتعة، قام بترتيبها مع مرافقي البيد مونتي الذي كان طباخاً ممتازاً.

قررت أن أغادر المدينة يوم 16 فبراير ويفضل الاقدام على ذلك قبل أيام من الموعد النهائي لانطلاق الرحلة حتى يكون بإمكاننا إصلاح أي خطأ أو شراء أي شيء قد نكون نسيناه وهذا ما يتضح جلياً من العيش في الخيمة – إلا أن الريح والمطر قد حالا دون ذلك.

حملت الجمال في صباح اليوم التالي بما فيها اثنين استأجرتهما حتى بني وليد المحطة الرئيسة الأولي في طريقنا، وكان سائقاهما مرشدين لنا في الوقت نفسه. لقد وددت أن يكون لي حصان، ولكن التكاليف والتي ستزيد من جراء نقل الشعير والماء له، لم تسمح لي بهذه الرفاهية. وقررت أن أرضي نفسي بوسيلتي الطبيعية في التنقل وهي سفينة الصحراء. وكان أقوى الجمال يحمل على أحد جنبيه صندوقاً كبيراً به الكرسي الملكي المخملي الأحمر، بأرجل وأيدي مطلية بالذهب علي نحو أنيق في طريقه إلي الحاكم برنو، وعلى الجانب الآخر صور شخصية بالحجم الطبيعي للملك فيلهلم (وليام) والملكة أوجوستا Augusta وولي العهد ولم تكن الأحمال مرهقة بالنسبة للبهائم فيما يخص وزنها ولكن في شكلها غير الملائم، فالجمال لا تحب أن تكون أحمالها (العديلة) تتدلى إلي أسفل منها كثيراً، أو أن تلامس أرجلها الأمامية أو الخلفية أثناء السير، فمن الممكن .أن تتحمل ثقلاً إضافياً بيد أنها تفضل أن تكون هذه الأحمال ملاصقة لجسمها القوي علي كل جنب من سنامها.

وحمل جمل ثان رزمة من البنادق مع ذخيرتها المناسبة في سلام إلي جانب عدد من الأناجيل العربية التي سألني السيد روبرت أرتنجتون Robert Arthington من ليدزLeeds بإنجلترا بأن أحملها معي، في حين يحمل جمل

ثالث بقية الهدايا، وتشتمل على ساعة بندولية برونزية وساعة جيب ذهبية ذات سلسلة وتلسكوب مزدوج، وست من الساعات الفضية المعتادة، وطقم لتقديم الشاي مطلي بالفضة، وبعض قطع الحرير والمخمل، ورطل من عطر الورد الخالص ومجموعة من المسابح وأساور وعقود من المرجان الأصلي واثنى عشر برنساً من المخمل وملابس وأصواف تونسية رفيعة وأثنى عشر طربوشاً تونسيا أصليا،والأرغن الذي أمتع أمسياتنا بالبهجة والأنس في المنشية المعزولة وحمل جملان آخران بلوازم سفري الشخصية والكتب والأدوات والملابس والمعدات اللازمة للعلاج وفي حالة الضرورة لركوبي، كما يحمل جملان آخران المؤونة ومعدات الطبخ وخيمة ومعدات أخرى في حين خصص الأخير لنقل الماء. ولا يجب أن يحمل جمل من هذا الإقليم في الرحلات الطويلة بأكثر من 300إلي 400 رطلاً.

وعلى وجه العموم ربما كان من المناسب استئجار الجمال على طول الطريق من طرابلس إلي فزان لأن الجمال المولودة في الشريط الساحلي ليست لها سمعة جيدة، وأن قوتها الجسمانية ونشاطها أقل بكثير من تلك التي جاءت من أقاليم أكثر ارتفاعاً حيث توجد أحياناً مراع أفضل في سوكنه وجبل الهروج أو في مناطق ورفله وأبو سيف وغيرها من القبائل. لقد أعطت جمالي انطباعاً حسناً بين مثيلاتها في طرابلس، بيد أن بعض الشكوك قد أصبحت تساورنا في سوكنه عن مقدرتها في الوصول إلي برنو، علاوة على أن هذه الحيوانات حساسة على نحو كبير للتغيرات المناخية، ولقد قاسى جمل محمد القطرونى كثيراً من بقائه شهراً سنويا في طرابلس وهو حمل رائع من الجنوب على الرغم من انه عينة

مسنة بالنسبة لنمطه، وكان من الصعب الاحتفاظ به في حالة جيدة إلا من خلال تغذيته بالشعير يومياً، وكان ابن الصحراء المسن يسير بخطوات واسعة وبحيوية ونشاط، وكان متفوقاً على جميع رفاقه الأقوياء، ولكنه كان جامداً ومجهداً وأيقظ في نفسي من البداية الخوف من أنه لا يستطيع الوصول إلي وجهتنا التالية من رحلتنا، وبأنه سيفقد في الطريق بعيداً عن موطنه الذي جاء منه.

غيرهارد رولفس (1831-1896)

ولد فريدريش غيرهارد رولفس **1831** في بلده فيغزاك القريبة من بريمن ويعتبر من ابرز الرحالين الاوربين الذين ركزوا معظم جهودهم على ليبيا على مدي خمسة عشر عاماً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد زار ليبيا أربعة مرات كانت أولها قصيرة في أواخر **1864** ودخلها في غدامس، وتوجه منها إلى طرابلس عبر الجبل الغربي، ليسافر إلى أوروبا. وفي مارس **1865** عاد إلى طرابلس استعداداً لرحلة حملته إلي غدا مس، ثم عاد منها إلي مزدة وتابع سيره حتى وادي الشاطئ وسبها ثم مرزق، وتوجه من هناك إلي كوكه عاصمة برنو وسار منها غربا متتبعا الحدود الجنوبية لانتشار الإسلام في ما وراء الصحراء حتى وصل خليج غينيا وكانت هذه الرحلة وراء شهرته في صفوف الرحالين الأوربيين إلى افريقيا ورواج كتابه " رحلة عبر أفريقيا " ولكنه لم يتوقف في تقاريره امام وصف المدينة طويلا. وهذا ما يذكره في كتابه عن رحلته الثالثة من طرابلس إلي الإسكندرية **1868-1869** والتي تكتسب أهمية خاصة من حيث أنها وراء انطلاق ناختيغال والتي نجم عنها مؤلفة

الصحراء وبلاد السودان. وأما رحلته الرابعة فقد بدأت في طرابلس بعد عقد وانتهت في الكفرة. وفي مؤلفاته التي وضعها حول رحلاته الثلاثة الأخيرة كان يقف عند طرابلس ويقدم وصفا لها كما انه قدم بحثاً إلى المؤتمر الاستعماري الذي عقد في بروكسل **1876** تحت رعاية ليوبولد الثاني ملك بلجيكا وكان بعنوان " ليبيا ومكانتها بذاتها باعتبارها منطلقا للرحلات لاكتشاف الدواخل الأفريقية" ترجمها د. عماد الدين غانم ونشرها في مجلة البحوث التاريخية طرابلس يناير **1979** الرحالة الألماني رولفس وليبيا وفي الذكرى المئوية لوفاة الرحالة رولفس نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية في العام **1996** كتابه الرئيسي بعنوان: " رحلة عبر افريقيا " مشاهدات الرحالة الالمانى رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا **1865 ـ 1867** وتشمل دراسة عن الرحالة ورحلاته كما نشرنا تقارير رحلته إلى الكفرة ونورد بعض النصوص التي اخترناها من مؤلفاته.

مند **1835** يتولى أمر ادراة ايالة طرابلس الغرب في ظل الحكومة العثمانية وال برتبة مشير واختير لهذا المنصب رجال من صفوف المدنيين والعسكريين لا بل من البحرية، فقد جري اختيار أمراء بحر ولاة على طرابلس الغرب، ويمكن أن يستدعى الوالي حسب رغبة الباب العالي، وغالبا ماقدمت الحكومة العثمانية على مثل ذلك في بداية فرض سيطرتها، الا انها الان غالبا ما تدع المشير الذي تم تعيينه أربع سنوات في منصبه كما أسلفت، بحيث يتعرف على جميع الأوضاع في البلاد والسكان. ولم تعد سلطة الوالي حاليا مطلقة يمتلك حق التصرف بحياة الناس فقد وضع إلي جانبه في إدارة الولاية مجلس كبير

ومجلس مشورة وهذا المجلس يضم الأشخاص الذين يشغلون أعلى المناصب مثل القاضي وقائد الجيش والمفتي وعلاوة على ذلك يمكن التوجه بالشكوى ضد المشير إلي الوزارات في اسطنبول، وحتى إلى الخليفة ذاته. ويتلقي المشير راتبه كوالى ويزعم انه يحصل على دخل قدره خمسين ألف فرنك.

أما الجيش المرابط في طرابلس فيخضع لأمر قيادة مستقلة، وعادة ما تكون رتبه القائد الأعلى بدرجة عميد. وفي الغالب لا يزيد عدد القوات النظامية عن 6000 رجل وهم من سلاح المشاة والمدفعية. ويتشكل هؤلاء من عساكر من الولايات الاخري التابعة للدولة، بينما تخدم القوات التي يجري تجنيدها من أبناء طرابلس الغرب في أجزاء الدولة الأخرى، ولما كان لا يحق للمشير التدخل في الإدارة الداخلية للقوات إلا انه يمتلك سلطة توزيع الحاميات. في حالات التمرد حين يصدر المشير الأوامر للتحرك والهجوم أما القوات الشعبية في طرابلس الغرب الموجودة في المنشية حيث يعتبر كل رجل عسكرياً بالفطرةثم قوات الدرك والقواصين والزابطية وأنهم جميعا يخضعون لأمر المشير المباشر، أما الأمور المالية فإنها تدار مستقلة عن المشير وهي تخضع للمحاسب (المحاسبجي) والخازندار الذي يعين من طرف وزارة المالية في اسطنبول وعليه أن يرسل إليها الموارد كما أن الجمرك غير خاضع للوالي، ولا تعرف بدقة موارد طرابلس الغرب، وفي الأثناء فان البلد تؤمن دخلا يكفي لرواتب الموظفين وللقوات المرابطة هناك الأجور. وفي غالب السنوات يتبقى فائض يتم إرساله لاسطنبول. وتتشكل الموارد من الضرائب المباشرة التي تجبى عن منتجات الأرض ومن ضريبة اليهود التي يقدرها عن كل فرد من أبناء

الطائفة في الحبر الكبير (الحاخام باشي) وعلى سيبل المثال يجبى عن كل شجرة زيتون او نخيل قرشان ونصف كما يجبى سنويا عن كل جمل 40 قرشا وعن كل بقرة 20قرشا وعن كل 10 أغنام 40 قرشا وكل عشرين عنزة 40 قرشا. وأما انه تحدث كثير من الالتفافات فقد ذكرت ذلك في مواضع مختلفة، أما الضرائب غير المباشرة فإنها الأكثر إيرادا وتعتبرها الدولة في الغالب حصراً لها وهي ترد من رسوم الجمرك5٪على الواردات و12٪على الصادرات.

أما عن الأنهار في العموم طرابلس الغرب لا توجد انهار حقيقة. وتجري اشهر الوديان من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي إلى خليج سرت الكبير وهما واديا سوف الجين وزمزم.ويتلقى سوف الجين روافده من الطرف الجنوبي للجبل ويأتي بعضها من طرف الحمادة الحمراء ومن هذه الأخيرة وجبال الهروج ينطلق وادي زمزم، ووادي الخيل الذي يدعي في مجراه الأسفل وادي ألبي، وعلى الأغلب يوجد في صحراء سرت وديان أطول، ومن هذه نذكر منها الهراره والشفة،وان الوديان الموجودة في الصحراء مثل وادي الشاطئ والوادي الشرقي والوادي الغربي لا يمكن تصنيفها بل هي مثلها مثل وادي القطرون تمثل منخفضات دون مرتفعات. وان برقة التي تتبع سياسيا طرابلس الغرب فهي تشكل منطقة قائمة بذاتها أما عن المعادن في ايالة فيما منجم الكبريت المثمر. في شواطئ سرت إلا أن السلطات العثمانية منعت استغلاله. وفي فزان توجد سبخة نطرون وقد وجد في جزء منه طريقة إلى طرابلس. ويصدر من هناك في بعض الأحيان كما توجد بعض مناجم البوتاسيوم إلا أنها لم تستغل. أما عدد السكان في منطقة طرابلس فانه يصعب جدا تحديده بدقه على انه تتميز ثلاث

مجموعات رئيسية وهم العرب والامازيغ والمختلطين في فزان يقطن العرب المدن والسهول الواسعة برقة كما ينتشر الامازيغ في الجبل وغدامس وسوكنة واوجلة أما المختلطون الذين نشاوا عن الزواج بين العرب والأتراك والامازيغ والتبو وغيرهم من الشعوب السوداء فإنهم يسكنون قائمقامية فزان، وقلما يمكن ذكر الأتراك القليلين المقيمين في منطقة طرابلس ويضاف إليهم القوات وهم في الغالب ليسوا من الأتراك وأكثرهم عرب من بلاد الشام وكثيرا ما يكونون من الألبان والشركس وحسب الولاية التي يستقدمون منها ومن غير الجائز تماما ما يفعله غالبية الكتاب عندما يطلقون اسم مغاربة على سكان المدن ويعتبرونهم شعبا خاصاً وقد ظهر اسم المغاربة أو المور أولا بعد الطرد من اسبانيا لان الأسبان كانوا قد اعتادوا على إطلاق هذا الاسم على المهاجرين من منطقة موريتانيا ويدعون لوي موروس إلا أن هؤلاء الموريتانيين المهاجرين إلى اسبانيا كانوا من البربر والعرب وهم أهالي المدن وسكان البلاد قبل وبعد هجرة المسلمين وطردهم من اسبانيا وكان يوجد في شمال أفريقيا والجزيرة العربية أهالي مدن وسكان البلاد إلا انه من المضحك أن نجعل سكان المدن نوعا خاصا نطلق عليه اسم موروس وماورس ومور، ولذلك فانه يجدر بنا أن ننبه إلى انه لا يجب أن ندعو أهالي طرابلس عربا فحسب بل أهالي جميع مدن الشريط الساحلي الممتد حتى طنجه الواقعة على طريق جبل طارق وهم في غالبيتهم كذلك. ولكن عندما يصر المرء على تسميتهم مغاربة (مور)ويعمم هذا المصطلح على جميع السكان الذين كانوا يقطنون ولاية موريتانيا سابقاً سواء في ذلك كانوا من أهالي المدن أو الريف أو من العرب والامازيغ، فانه تجدر الإشارة

إلى أن المور لم يوجدوا مطلقا كشعب خاص. ويجدر بنا أن نطلق على اليهود شعباً خاصاً ولو أنهم قريبون جدا من العرب. وفيما عدا الواحات نجدهم في كل المدن. وحتى الجبل توجد فيه قرى يهودية، كما انه من الخطأ أيضا أن ننظر إلى البدو بأنهم شعب متميز. وان اسم البدو مأخوذ من البدوي ولا يعنى سوى الارتحال وهولا يعنى على الإطلاق شعبا امازيغيا رحلا او شعبا عربيا رحلا. وفي الغرب أو الغرب الافريقي لا يعرف أي مصطلح غير ذلك. وعدا عن ذلك يوجد سود من عموم دواخل أفريقيا إلا أنهم لم يتجمعوا في أي مكان لتشكيل جماعة ماهم يقصد المرء بذلك قرى الأكواخ الصغيرة القائمة تحت أسوار طرابلس وبنغازي وغالبا ما يسكنها السود. فهي إفرازات الأرقاء والامات الآبقين كما توجد بينهم فيض ممن تقطعت بهم السبل. وسكان طرابلس الغرب هم من الحضر والرحل، ويستقر هؤلاء إما في مدن كبيرة تقع باجمعها على الشواطئ، أو في قري صغيرة في بيوت مشيدة من الحجارة أو الطين أو يسكنون في الجبل في كهوف تحت الأرض، اوكما هو الحال في الواحات حيث يعيش البعض في أكواخ مشيدة من سعف النخيل وإنهم يعيشون من التجارة والصناعة والحرف وزراعة البساتين والحقول والبدو باجمعهم هم من العرب ينزلون الخيام في خيمة واحدة أو في فرق، أو دوار وهذا يعني جمع الخيام على شكل نجع. وغالبا ماتصنع الخيام من شعر الماعز وكثيرا ما يخلط مع وبر الجمل ويختلف شكل الخيمة حسب القبيلة ولها علامات وألوان مختلفة، ويعيش البدو في الأساس على تربية المواشي، الانهم يزاولون أيضا الزراعة، وعلى وجه العموم فان دائرة حركتهم محدودة فلا تستطيع كل قبيلة أن تتوجه بقطعانها حيثما يشاء، ومنذ القديم

تعارفوا فيما بينهم على حدود معينة لا يتجاوزونها ولكن لما كان ذلك يقوم على إتقان وعرف فقط فانه غالبا ما تقع نزاعات بشأنها تتطور إلي حرب بين القبائل، ومنطقة طرابلس التي تعتبر ولاية تابعة للحكومة العثمانية حيث تتشكل من سبع ألوية أو نواحي وكان الوالي يتولى المشير تعيين حاكم اللواء ويعين حاليا حكام الأقضية من اسطنبول لكنهم في الأمور الإدارية خاضعون للمشير في منطقة طرابلس والألوية المختلفة هي:

1- طرابلس ذاتها وما يجاورها (المنشية وتاجوراء)

2- الخمس وهي تضم عرب خليج سرت وجبال ترهونة

3- الزاوية وتضم المنطقة غربي طرابلس حتى الحدود التونسية

4- الجبل ويضم الجبال الواقعة جنوبي طرابلس حتى مزدة

5- غدا مس مع بعض الواحات المجاورة لها

6- فزان

7- برقه وهي تضم مجمل قورينائية القديمة وواحات أوجلة

ويتولى اللواء قائمقام وغالبا ما يحمل أيضا لقب باشا وينقسم اللواءالي مديريات يقوم على راس كل منها مدير.

وطرابلس التي يكتبها غالبية الأوربيين Tripoli , Tripoly أما الألمان فيكتبونها وفقا لكارل ريتر Tripolis ولا أجد أي مبرر لإهمال حرف s في النهاية. وعلاوة على ذلك فان أهالي طرابلس الحاليين يكتبونها " طرابلس " وحسب أقوال الجغرافيين القدامى والباحثين الحديثين فقد بنيت في موضع أويا وعندما دمرت في عهد الخليفة عمر، شيد العرب مدينة جديدة على أنقاضها

وأطلقوا عليها اسم المنطقة باجمها وليس هناك أي برهان على أن صبراته أو أويا قد بدلت اسمها قبل الفتح، إلا انه لدينا العديد من الأمثلة التي تبين أن العرب قد أطلقوا اسم الولاية على المدينة فمثلا يطلق اسم اسطنبول على تركيا وفأس على عموم المغرب. وأما أن القدامى لم يذكروا مرفأ في حالة أويا ربما لأنه لم يوجد ميناء طبيعي بجانبها كما هو الحال في طرابلس الآن ويرجع الريف الممتد بعيدا إلى الشرق من القلعة والجزر الصخرية كان شاطئا.

لم يتبق في المدينة شئ من العصور القديمة سوي قوس النصر الجميل الذي شيده سكيبيوس دفريوس (حسب بارت في زمن نائب القنصل كايو اورفيتوس) في عهد الانطونيين ماركوس اوريليوس فيروس. وهذا القوس وحده يشير إلي مدينة كانت تقوم هنا، وقد شيد بعناية بالغة من قطع مرمرية كبيرة الاان أكثر من الثلث مطمور في الردم والرمل، ومن الجانب الخارجي تشاهد أشكال نساء ورجال وهي تمثل مشاهدا وأحداثا تاريخية والنقش في الجانب الشمالي غاب نصفه نتيجة البناء على وجه العموم فقد طرا تغيير نتيجة البناء. وفي السابق كان يستعمل حانه لتناول الكحول يقوم عليها مالطي، إلا أنها استبعدت حاليا ولم يحصل ذلك نتيجة اهتمام بالإعمال الفنية القديمة بل لأنه يوجد قانون عثماني قديم يحظر بموجبه فتح حانه إلا على مسافة معقولة من الجامع. ورغم استمرار الجامع والحانه متجاورين بسلام طوال سنوات فقد وجد أن جامع الحاج علي قرجي اقرب إلى الحانه مما يسمح به ولذلك فقد كان من السهل إصدار الأمر بالإغلاق إلا أن السبب الحقيقي وراء ذلك أن طلاب الجامع كانوا يطلبون الكثير من كؤوس العرق مجانا. ولما كان صاحب الحانه لا يرغب بإلحاق الضرر

بنفسه لم يشأ أن يناول هؤلاء فوجدت هيئة العلماء بسرعة السبب القانوني لإزاحة الحانه من هناك. وعندما ما قص علي ذلك صاحب الحانه السابق فكرت مليا قائلا أن كل شئ مثلما عليه الحال لدينا حاليا ويمكن أن يفتش المرء عن الآثار القديمة في الجوامع على ابعد حد كما يوجد في كثير من زوايا الشوارع أعمدة وقد أصبحت جزءا من البناء وتحمل في الغالب تيجانا كورنتية ووظيفتها الحفاظ على زوايا البيوت من التناثر. كما توجد بعض الأحجار تحمل نقوشا مطموسة وحجرة من حجارة مذبح في السور الشمالي هذا كل ما تقدمه طرابلس للعين المجردة ويجب أن لا نغفل ذكر ما قام به القنصل العام الانجليزي السابق السيد وارنجتون عند بناء بيته في المنشية فقد عثر هناك على بعض القطع الزجاجية النفيسة وهي الآن في المتحف البريطاني بلندن.

يحد البحر طرابلس من جهتي الشمال والشرق وهي مخمس تقريبا ويحيط بالجوانب الثلاثة الاخري سهل من الرمال وليس ثمة خنادق من جهة البر على أن الاسور مرتفعة ومنحدرة ولو أنها الآن تكاد تكون متداعية بحيث تخرقها طلقات البنادق، وفي السابق كان للمدينة حصنان قويان، في الزاوية الشمالية الشرقية ويدعي الحصن الأسباني وقد انفجر في عام **1863** والحصن في الزاوية الجنوبية الشرقية الذي حول بناؤه منذ سنوات إلي قصر للحكومة، وثمة حصنان منفصلان يقوم أولهما شمال المدينة على جزيرة صخرية، ويدعي الحصن الفرنسي والحصن الأخر في الشرق ويقع على شاطئ المنشية ويسيطر على مدخل الميناء ويدعي الحصن الإنجليزي وهما منهاران تماماً وعلى أساس هذا الوصف يتضح انه رغم أن المدينة تبدو من بعيد وكأنها متماسكة وحصينة

الانها ليست قوية، أما في السابق لم يكن لها سوي بابين أولهما في الشرق عند رصيف الميناء وثانيهما في الجنوب ويفتح باتجاه المنشية ويوجد الآن بالإضافة إلي الباب الجنوبي باب أخر وباب رابع يخترق السور الغربي، والمرفأ الواقع في شرق المدينة محاط بالريف الذي ينطلق من الحصن الأسباني ويسير موازيا للشاطئ. ولا تبقي سوي الجهة الشرقية مفتوحة وبجهد ضئيل يمكن أن يصبح واحداً من أوسع المرافئ وأكثر أمانا على الشاطئ والمدينة تنقسم إلي خمس حارات وغالبا ما يسكن اليهود الحارة الشمالية الغربية والحارة الشرقية أي الواقعة على البحر يسكنها غالبا النصارى وفي السابق كان اليهود يعيشون في محله تدعي هنا الحارة الانهم الآن يقطنون مختلطين مع المسلمين والنصارى، وشوارع طرابلس عريضة ونظيفة ومنذ القديم تتمتع طرابلس بهذا الصيت فقد وصف ليون الإفريقي بيوتها بأنها جميلة إذا ما قورنت مع بيوت تونس ويمضى بلاكبير بعيدا بحيث يزعم بان المدينة من حيث بناء بيوتها ونظافة شوارعها تعتبر نموذجية لمدن أوربية واقعة على البحر المتوسط وتتألف بيوت المسلمين في الغالب من طابق واحد وهي وضاءة مطلية باللون الأبيض من الخارج وجميعها ذات سطوح مستوية، وفي وسط كل فناء كبير يؤدي إليه ممر متعرج ذو بابين يؤديان إليه من الشارع بحيث إذا دخله الغريب لا يبلغ نظره إلي فناء البيت. ولو كان البابان مفتوحين، وفي هذا الممر يعمل على الدوام مصطبتان حجريتان حيث يستقبل رب البيت زيارات العمل، وفيها عدا ذلك يقيم رقيق وخدم البيت. واعلي البيوت مزودة بنوافذ ذات شباك من جهة الشارع وتطل جميع الغرف على الفناء من خلال أبواب عالية ذات أقواس

مغربية وهي دائما طويلة وضيقة وتنفتح الغرف العلوية على ممر ينزل إلي الفناء السفلي بدرجه المتعرج ويمنحه في ذات الوقت الظل. وفي جميع بيوت المسلمين بعض قطع الأثاث الأوربية على الأقل، وأما بيوت التجار الأغنياء والموظفين فهي مؤثثه بأكملها على النمط الأوروبي. ولا تختلف بيوت الأغنياء اليهود في أي شئ عن البيوت الأوروبيةولا تختلف بيوت فقرائهم في شئ عن بيوت المسلمين اللّٰهُمَّ الا في زيادة وسخها. وفي كل بيت وحتى في اصغر البيوت صهريج (ماجل) يجمع فيه من السطح ماء المطر العذب وهو يكفي في الغالب استهلاك البيت من عام إلي عام ويستخدم في الغسيل وغالبا في الطبخ. ومن ألابنيه في طرابلس قصر الباشا (السرايا الحمراء) وهو مبني غير منتظم، خلو من أي فن معماري وهو ثكنة وسكن للحريم ويضم العديد من منازل الموظفين. ولا يتميز أي من الجوامع الخمسة الرئيسية بجماله وحتى جامع على قرجى الجديد الذي شيد في الثلاثينات من هذا القرن لا يتسم بذلك إلا أنها جميعا زينت من الداخل بأعمدة إغريقية ورومانية مينوليتية من الصخر الفرفيري وأما النصارى فلهم كنيستان احدهما كاثوليكية والثانية اورثوذكسية ويرتبط بالكنيسة الكاثوليكية دير الفرنسيسكان وهو من أقدم الأديرة في أفريقيا إذا ما استثنينا الأديرة القبطية المصرية. ويعود تاريخ تأسيسه إلى فترة حكم فرسان مالطا في طرابلس. ولدى الرهبان مدرسة لأطفال الأهالي المسيحيين ويتولى بعضهم فرائض الصلاة والآخرون حرفيون ورئيس الدير يحمل لقب بريفكت (مقدم) وهو بدرجة أسقف وبصلاحياته يبلغ دخل الدير من معونة مالية قدرها 20,000 فرنك سنويا ومن عائدات التعميد والزواج وغيرها ويضم الدير

مستشفى تقوم على إدارته راهبات يسوعيات ويستقبل المستشفى مرضى من إتباع جميع الأديان. وليس للعثمانيين سوى مستشفي عسكري يقع خارج المدينة وهو فيما عدا ذلك مؤثث جيدا ويستطيع استيعاب 120مريضا وهو مفتوح للمدنيين في ظل ظروف معينة. وأما الضيوف الأوربيون فأنهم ينزلون في نزل واحد وحتى لأولئك الذين يكتفون بمطالب متواضعة لا يوفر أسباب الراحة. وهناك العديد من الفنادق المجهزة تجهيزا جيدا تؤمن حاجة المسلمين إلي المأوي لفترة من الزمن وليس في طرابلس بازار حقيقي الاان شوارع كاملة تشكل أسواقا فمثلا يولي الاهتمام في سوق الترك للتبغ والأفيون والقهوة والأشياء الرفيعة الشأن وفي شوارع أخري مثل القيسارية تباع بصورة رئيسية الأقمشة المحلية وقطع الملابس أما جماعات النجارين والحذائين والسراجين والحدادين فقد خصصت لهم شوارع خاصة وعلاوة علي ذلك توجد دكاكين أوربية كبيرة، حيث يمكن شراء كل شئ منها. وتوجد ثلاث صيدليات لسد حاجات المرضي من الجمهور وخصصت حمامات للنظافة كما توجد العديد من الحانات للخمر.

أما النظام الأمني في المدينة فيتولى أمره الشرطة ولوانهم لا يلاحظون أثناء النهار بل يقومون غالبا بدورياتهم ليلا وعدا عن ذلك يوجد مخفر شرطة رئيسي وحراسة جمركية وحراسة للسراي، ويتولى شيخ البلد أعلى دائرة للبلدية.

وسلع التصدير الرئيسية هي الحبوب والزيت والفواكه والتمر والبرتقال الليمون الحامض والفلفل الأحمر والمواشي والصوف وجلود مذبوغة والسمن والعاج والشمع وريش النعام وغبار الذهب والرقيق وشئ من الصمغ العربي

والسنا والنيلة والنطرون والإسفنج والمصنوعات اليدوية مثل الحصر والسلال والسجاد وقيمة هذه الصادرات تبلغ في تلك الفترة حوالي 5.000000 فرنك فإن الحبوب وحدها تشكل نصف هذا المبلغ يليها الزيت وعاج الفيل والرقيق وغبار الذهب والصوف والمواشي. أما سلع الاستيراد فهي قماش الكتان المالطي والمحمودي من إنجلترا والمناديل والأقمشة الحريرية والمخملية وخردوات ومواد غذائية والقهوة والسكر وصبغات وخمر وكحوليات والتبغ والكبريت والخشب والمعادن والأسلحة والجلود المصنعة والورق وسلع نوربنرغ، والبورسلان واللؤلؤ الطبيعي واللؤلؤ الزجاجي والحلي والفضة والساعات والأثاث وغيرهم من المصنوعات ومن هذه الأشياء فإن الأهم هو الكثان والأقمشة الحريرية ثم تليها الخردوات والمواد الغذائية والمعادن وسكر. وعلاوة علي ما يشترى ويتجر به يومياً ينعقد أسبوعياً سوقان أمام أبواب المدينة وهما سوق الثلاثاء أمام الباب الجنوبي للمدينة وسوق الجمعة أمام الباب الغربي ويجتمع يومياً آلاف الأشخاص من جميع أرجاء المدينة وهي تقدم في هذه الأيام واحدة من أهم وأطرف الصور التي يمكن تصورها عن الحياة في إفريقيا ولم يعد يباع الرقيق علنا إلا أنه في السر وعلى علم من القنصليات.

هينريش فون مالتسان " 1826-1847.

ولد هينريش فون مالتسان قرب مدينة درسدن من أب ألماني وأم إنجليزية، فقد عاش مابين إنجلتر وألمانيا والنمسا. بعد وفاة والده، تعلم العربية، والعبرية أثناء دراسته الجامعية كما أبدى اهتماما كبيراً بدراسة الآثار القديمة في حوض البحر المتوسط. لقد عاش في الجزائر في خمسينات وسنيات القرن التاسع عشر

وتجول في مختلف أرجائها كما زار المغرب ونشر عدداً من الأعمال الهامة عن الجزائر واعتنى بالأدب الشعبي الجزائري.

وجاء اهتمامه بليبيا من خلال رحلتين الرحلة الأولى كانت في **1853** وقد شملت تونس والجزائر ووصل إثرها إلي طرابلس. أما عن زيارته الثانية فكانت ما بين **1868- 1869** ووصل في نهايتها إلي طرابلس **1869** ومكث فيها حوالي 4 أشهر شملت زياراته ضواحى طرابلس آثار صبراته مروراً بجنزور والزاوية تم عاد إلي طرابلس ليغادرها إلي مالطا. كما قام بزيارة الديار المقدسة في "مكة المكرمة" **1860** وهو متنكر بأنه حاج جزائري وادى معظم مناسك الحج.

أما عن مؤلفاته قام بنشر كتابين أدبين أولهما أصداف الحجاج قصائد سائح وقد صدر **1863** وقبر الرومية وهي أسطورة تدور حول الجزائر ومن مؤلفاته رحلة حجى إلي مكة وصدر **1865** وفي سنة **1868** ونشر كتاباً بعنوان رحلة إلي جزيرة ساردينيا **1864** وهو يوثق النقوش الفينيقية التي وقع عليها في الجزيرة وأما تقارير رحلته في تونس وطرابلس فقد نشرها في **1870** أي بعد مغادرته طرابلس بسنه بعنوان " رحلة في ايالتي تونس وطرابلس وهو يدرس في الجزء الثالث منه طرابلس وتاريخها وأحوالها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما قام مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بنشر الجزء الثالث المذكور بعنوان "في رحاب طرابلس وتونس دراسة و ترجمة د. عماد الدين غانم. ويعتبر هذا الجزء فيها يخص طرابلس اشمل تقرير عن المدينة وتاريخها ومواقعها العمراني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وينفرد في ذكر قضايا لا

نجدها لدى سواه مما يدل على العلاقات الواسعة التي استطاع التحرك في نطاقها وبذلك فإن كل من كتب عن طرابلس من بعده حول على ما وجده في كتابه.

يرى فون مالتسان أن الاسم الحالي طرابلس أنه يعود إلي زمن متأخر وكان يطلق في العصر القديم علي المنطقة التي تضم المدن الثلاثة والتي دعيت كذلك حسب المراكز السكنية الكبيرة فيها وهي صبراته وأويا ولبده.وإن موقع اثنين من هذه المدن كان معروفاً منذ زمن بعيد، الإ أن موقع أويا مازال موضع شك ناجم بسبب بيانات المسافات طريق أنطونين. ويشير فون مالتسان إلى أننا نمتلك قطعة نقدية فينيقية التي يقرا عليها بوضوح بالكتابة أسم (أويا مدينة مكار) وبذلك يبرز لدينا أيضاً الأصل الصوري للمدينة إذ أن مكار هو الإله الرئيسي لدى الصوريين ويجري تقديسه في جميع مستوطناتهم،وبذلك يتوضح لدينا أيضا الاسم الوارد في جدول الأبعاد البحرية الكبيرة حيث فتشنا عبثاً عن ووجدنا موضعها مكارايه وهذا يعني مدينة مكار يرى جوداس في دراسته عن اللغة الفينيقية أن مكاراية مدينة أخرى غير أويا بجانبها وتتبعها. وأن مكاراية كانت تقع في موقع طرابلس الحالية وأن وأن أويا ومكاراية هما مدينة واحدة.

لاشك أن الاسم الفينيقي لأويا كان معروفاً لدى الرومان الذين كانوا يجدون صعوبة في نطق العين* في بدايته وانعكس هذا على صورة كتابتها فبلينييوس يكتبها أويا. وأما بطلميوس فيكتبها هوا Heoa وهذه جميعها ليست صحيحة، إلا أن طريقة الكتابة الأولى سادت في وقت متأخر من العصر

* ـ من المعروف انه لاخلاف بين العين والهمزه في اللغات السامية

الروماني وهي تظهر في البيت المشهور من قصيدة سيبلوس ايتاليكوس بصيغه أوئيا Oea

Oeaque trinacrios Afris permixta colones

ولكن كيف ينطق الأهالي هذا الاسم في هذا المجال يبدو أن الجغرافي العربي أبا عبد الله البكري يقودنا إلى وضع يدنا على ذلك فهو يروي أن طرابلس كانت تدعي في السابق مدينة أناس وقد اقترح بارت أن تقرا أياس أو أناس لانها غير منقوطه. ولكننا يمكن أن نقرأها أيضا أيَاش أو أيَاس، وبذلك نقترب من الكتابة الواردة على العملة التي تحمل أسم أوياث والخلاف هو الحرف الوحيد في العربية أوياس و أوياش وفي الفينيقية أوياث أي س أو ش عوضا عن ث. وبالإضافة إلي ذلك فان البكري يشتق أسم طرابلس اشتقاقا صحيحا من أصله الإغريقي وأثبت انه جغرافي ثقة[1].

لكن متى ظهر هذا الاسم طرابلس وأطلق على المدينة لم يكن بوسعه، مثله في ذلك مثل غيره، أن يقول شيئا، ويعلق بيتشى أهمية بالغة على الاسم الذي يطلقه الأوربيون حاليا على آثار صبراته وهو طرابلس القديمة ويعتبره أنه اسم المدينة الذي أخذت في البداية أسم المنطقة ولكن هذا الاسم أطلق بعد

(1) . ويذكر البكري على ان تفسير أطرابلس بالاعجمية الاغريقية ثلاث مدن ، وسماها اليونانيون طربليطة وذلك بلغهم ايضا ثلاث مدن : طر معناه ثلاث وبليطة يعنى مدينة . ويذكر ان اشفاروش قيصر هو الذي بناها . وتسمى ايضا مدينة أطرابلس مدينة اياس . وعلى مدينة أطرابلس سور صخر جليل البنيان وهي على شاطئ البحر ،ومبنى جامعها أحسن مبنى وبها اسواق حافلة جامعة وحمامات كثيرة فاضلة وبأطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحولها اقباط في زي البربر كلامهم بالقبطية في قرارات في شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة ايام الى موضع يعرف ببي السابري وفي القبلة مسيرة يومين الى حد هوارة . وفيها رباطات كثيرة ياوي اليها الصالحون اعمرها واشهرها مسجد الشعاب ومرساها مامون من اكثر الرياح .

خرابها على طرابلس الحالية. إلاأنه ليس هناك ما يثبت أنه كان دارجا في البلاد (العرب لا يستخدمونه على الإطلاق) ولا يطلق على صبراته، ولو أنه منذ قرون عديدة يجب أن يكون قد استعمله بحارة أوروبيون واننا نجد أمثلة على هذه التسميات السطحية على سبيل المثال إطلاق أسم أفريقية على مدينة واحدة هي المهدية.

لا تذكر قوائم الأسقفيات أسم أسقف طرابلس مطلقا، ويمكن تفسير ذلك لأن طرابلس في العصر القديم لم يكن أسم مدن، ولم يكن الأساقفة يحملون لقبهم نسبة للولاية بل المدينة، وبالمقابل نجد أسم ثلاثة أساقفة لاويا ناتاليس سنه (255م) وماكسيميانوس الدوناتي سنه (411م) اللذين حضرا المجمع الكنسي برئاسة كبريان وأغسطينوس وكذلك كرسكونيوس الذي عاني كثيرا نتيجة للاضطهاد الفاندالي في ظل غيزيخ، واما أسم طرابلس الذي أطلق على الولاية فأنه يرد لأول مرة عند بومبونيوس ملا، ولا نجد أسم الولاية الطرابلسية إلا في وقت متأخر جدا ففي القرون الأربعة الأولي بعد سقوط قرطاجة كانت هذه الولاية من ضمن الولايات الرومانية ويعزومانرت إلي الإمبراطور سبتيموس سفيروس الذي يعود أصله إلي لبدة، تأسيس ولاية طرابلس، إلا أنه يظهر من كلمات اوريليوس فيكتور التي ترد لديه في هذه المناسبة أن اسم طرابلس كان سائدا منذ وقت بعيد ويطلق على الولاية على أنه كان أسما متداولا لدى الشعب.

لا يزيد عدد سكان طرابلس عن خمسة عشر حتى ثمانية عشر ألف نسمة، وهذه المجموعة السكانية القليلة تسكن باكتظاظ إلي جانب بعضها البعض،

لان طرابلس تتميز عن غيرها من المدن الإسلامية على سبيل المثال تونس والجزائر، بأن بيوتها لا تنتشر داخل إطار سور واسع نسبياً، بل تمثل كتلة مترابطة، لابل معظم أبنية المدينة تظهر متداخلة تداخلا كبيراً حتى نكاد تختفي معمارياً، لان الكثير من الشوارع تظللها أعداد كبيرة من الأقواس التي تربط البيت مع البيت المقابل له، وهذا ما يظهر بالطبع في الشوارع الأضيق التي تدعي زنقه، انه اسم يطلقه الجزائريون على شكل شارع كبيراً كان أم صغيراً. وأما شارع فيطلق في طرابلس على الشوارع الأكبر التي لا تحف بها الدكاكين، وبالتالي لا تحمل اسم سوق.

أن الداخل إلي المدينة عبر باب البحر يجد أمامه مباشرة شارعين من النموذج المذكور يؤدي أولهما إلي وسط المدينة بينما يمتد الثاني على طول البحر وتحف بالشارع الأخير البيوت عن جانب واحد فقط إذ تحف بالجانب الأخر سور المدينة من جهة البحر وهو منخفض نسبياً وقد زود على ارتفاع قامة بطريق للمشاة يستمر على طول المدينة حتى يصل إلي السراي الواقعة في الجنوب الشرقي من المدينة.

تتسم البيوت المطلة علىالشارع بأنها جمعياً جديدة وشبه أوربية وبنيت على نسق بيوت المدن الكبرى، وغالباً ما يتخذهاالأغنياء الاوربيون والقناصل والتجار لسكناهم. وربما كانت مثل هذه الشوارع قليلة في العالم فهو يوفر لساكنيه الموقع الممتع، إذ يقرن بين الاطلاله الرائعة على البحر الذي لا يبعد سوى بضع خطوات وبين أنسب الشروط الصحية. ومن حسن الحظ أن سور المدينة من جهة البحر ليس مرتفعاً وبذلك لا يحجب الشمس في الشتاء عن

البيوت، كما انه لا يعيق الهواء البحري صيفاً وبذلك تعتدل الحرارة والبرودة وبالإضافة إلي ذلك فان أرضية الشارع حجرية ممتازة ليس عليها أي اثر للروث أو حفر الماء التي أعيت أهالي تونس. ينتهي هذا الشارع قرب السراي حيث يقوم برج الساعة وهو مبني لطيف جداً يتكون من ثلاثة طوابق، وتحيط بالطابق الأسفل منه نوافذ زجاجية وقد خصص جزء منه دكاكين للساعاتين، ويتخذ الجزء الأخر لاستراحة بعض الوجهاء العاطلين، ممن يرغبون في مشاهدة حركة الأسواق المتنوعة، وأما الطابق العلوي فهو يحتوي على الساعة البرجية الأولي التي أنعم بها لأول مرة على الإطلاق على طرابلس، والساعة ذاتها تعطي التوقيت تبعاً للطريقة العثمانية، في حساب ساعات اليوم وهي تشبه الطريقة الايطالية القديمة. فهي تبدأ بحساب اليوم مع غروب الشمس، وانطلاقاً من هذا الميدان يتفرع الشارع إلي شارعين يسيران متوازيين لبعضهما ولا تفصل بينهما سوى مسافة قليلة ويؤديان إلي بابي المدينة في الجهة الجنوبية الشرقية الواقعين إلي جانب بعضهما وهما باب الخندق وباب المنشية والشارع الأول يسير إلي جانب السراي وهي كتلة بناء غير منتظمة تقع بين الشارع المذكور وسور المدينة والبحر وتقوم على نتوء صخري وتبدو وكأنها تشكل مدينة صغيرة منفصلة.

وإذا ما عدنا إلي ميدان برج الساعة الواقع خارج قصر الحكومة فإننا نجد علاوة على الشارعين اللذين وصفهما ثلاثة شوارع أخري، تنطلق من هذا الميدان يدعي أحدها الخردجية ويؤدي إلي باب المنشية، بالإضافة إلي الدكاكين التي تحف به من الجانبين، كما يوجد سوق آخر كبير هو سوق الحرارة أي حاكة

الحرير، ودكاكينهم تمثل في الوقت ذاته ورشة صنع الحرامات الحريرية وشبه الحريرية (وهي قطعة قماش مربعة يلف بها الرجال جسمهم ثلاث أو أربع مرات) وهي تحل في طرابلس محل البرنس الذي يسود ارتداؤه هنا. وهذه الأقمشة الحريرية تشكل تقريباً المنتوج الوحيد الذي تنتجه صناعة الطرابلسيين العصرية إلي جانب ذلك يقوم سوق يدعي سوق اليهود، وان اسمه يدل بما فيه الكفاية على جماعة الباعة غير المتجانسين الذين يمتلكون دكاكين هنا.

إن اليهود لهم حيهم السكني الخاص بهم، في هذه الدكاكين تعم الفوضى التامة في أصناف البضائع. وحسب اعتقادي ليس من السهل العثور على سلعة، لان أولاد اليهود ليس بوسعهم أن ينتجوا وفق الطلب، وإذا لم تكن متوفرة لديهم فان هؤلاء المتفنين يستطعون أن يبرزوه في أسرع وقت الأمر الذي يثير دهشة المشتري. إن تكملة هذين السوقين (سوق الحرارة – سوق اليهود) يشكل الحي الذي ينبض بالحركة حومة غريان وهو يمتد حتى الباب الجنوبي الغربي من المدينة وهو الباب الوحيد الذي يمكن أن يقال انه ينفتح على جهة البر لان الأبواب لا تبعد عن البحر وان اسمه الباب الجديد يدل على انه قد شيد حديثاً.

في هذا الحي حي اليهود سوق تباع فيه السلع اللازمة للحياة اليومية من مواد غدائية ويتميز هذا السوق بأنه مفتوح طوال النهار وفي الغالب يستمر حتى وقت متأخر ليلاً وهذا الوضع يؤدي إلي أن يدب النشاط في هذا الحي.

كما توجد مجموعة من مواضع البيع في العراء حيث تباع سلع من الخضار حتى الشباشب العربية إذ تباع كل السلع المتداولة تجارياً.

وعلى هذا الشارع الحافل بالحركة يقوم المسجد الجامع أحمد باشا القرمائلي في طرابلس وله مدخل على هذا الشارع ومدخل آخر على سوق مسقوف انه سوق الرباع ويطلق عليه عادة سوق الربع الذي يضم حوالي خمسين من دكاكين التجار ومن بينهم التجار الجرابه النشيطون الذين يتخذون المكانة البارزة ويعرضون القطع الجميلة المنوعة التي تحتاجها الكسوة العربية والشارع الأخر فانه يسير موازيا للشاطئ وللشارع البحري وهو الأول الذي انطلقنا منه والشارع الثالث يمثل قاعة مقببة تنصل مع سوق طرابلس الرئيسي ويدعي هذا في طرفه الشرقي سوق الترزية (الخياطين) وفي وسطه سوق الترك وفي طرفه الغربي تنطلق منه العديد من الفروع وتطلق عليه أسماء عديدة يسهل تفسير بعضها مثل زنقة الحمام إلا إن بعضها يبدو وكأنه قد التقط التقاطاً مثل زنقة الخمري، الاان أطول وأهم الأسواق هو سوق الترك وهو لا يشبه سميه في تونس، حيث قضي اليهود تماماً على الترك وفي الواقع يقدم هذا السوق بريق تلك الحياة التجارية الناشطة في جميع الشرق. وانه بتنوعه وأصالته يتمخض عن العديد من المظاهر الطريفة، وان أول شئ يسرنظرالزائر في السوق هو تلك النظافة الفائقة التي يحظي بها بلاط الطريق المأخوذ من أحجار رملية كبيرة، ثم يمتع نظره بالمنظر المتنوع الذي يتحرك أمامه مثل صندوق الفرجة. أن الدكاكين في هذه الأسواق تعرض أصنافا من البضائع تمثل جميع المنتوجات التي تصنع في الشرق، وبالطبع تسود المنتجات التركية. وأما الأخرى فأنها أسما وشكلاً تركية وبالطبع لا تفتقر هذه الأسواق إلي مقاهي وهي عبارة عن حجرات عارية ذات مقاعد وضعت عليها حصائر من القش وهذه الحجرات تمتلئ بالزبائن في

النهار ويمثل حيوية السوق وتوجود مجموعة مميزة من الفنادق حيث يستأجر الغرباء مخازن البضائع وغرفاً لهم وهذه الأبنية مربعة الشكل ذات فناء كبير تحيط به أعمدة وحولها مخازن في الطابق السفلي وغرف في الطابق العلوي. وان بضائع بلاد السودان المتنوعة تكوم في هذه الفنادق وتباع فيها.

وإن الحي العربي والتركي الأكثر ازدحاما حيث يتخذ أيضا الأعيان والتجار والأغنياء منازلهم ويقع سوق الحرارة المذكور ويمتد من السوق حتى سور المدينة الجنوبي وهذه البيوت تشبه إلي حد بعيد البيوت في تونس ولا شك أن تلك الصفوف الجميلة من الأعمدة تعلوها أقواس على شكل حدوة الحصان وقد زخرفت زخرفة كثيفة تشكل حليه البيوت المغربية القديم في الجزائر والتي نجدها أيضا في تونس ولو أنها نادرة، هذا النموذج مفقود هنا تماما.

وفيما عدا ذلك فإن مخطط البيت واحد إذ تحيط بوسط الدار (الفناء) ثلاث إلى أربع حجرات في الطابق الأرضي ومثل هذا العدد في الطابق الأول وفي بعض الأحيان تقوم من جهة أو جهتين أعمدة حول الفناء إلا أن هذا لا يتكرر في الطابق الأول بل تقوم مكانه دعامات خشبية ومن بين هذه الطريقة الفقيرة في البناء تشكل الفنادق والقليل من البيوت الكبيرة استثناء إذ تحيط بآفنيتها الواسعة في الطابقين أعمدة وأقواس إن المخطط في عمارة البيوت يسير على وتيرة واحدة ويتوضح ذلك في حقيقة أنه على الرغم من اتساع البيت المصمم بحيث يضم عدداً أكبر من الغرف، إلا أن عددها ظل أربعا في كل طابق ووضعت في كل جانب غرفة مثل اصغر البيوت العربية وبالطبع فإن هذه الغرف كانت كبيرة جداً إلا أن اتساعها كان بحجم بأن وضعت في الزوايا ألواح

خشبية تحد حجرات النوم، وأن هذه الألواح الخشبية تشكل زوايا غربية وجعلت على ارتفاعات متباينة وتؤدي سلالم صغيرة من واحدة إلى أخرى بعضها ذو درجات قليلة، وبعضها ذو درجات كثيرة ومما يلفت النظر بصورة بالغة السقف، فقد غطى بخشب مزخرف زخرفة تختلف عن الزخارف المغربية، إنه يقلد أشكالا نابذة ويدعى نقش الحديد. وهذا النوع من زخرفة السقوف الذي يسود في القصور المغربية القديمة والحديثة من مراكش حتى تونس تتخذ من الحمراء في غرناطة قدوته وكذلك من القصر في اشبيلية، أن هذا اللون يوجد أيضا في هذه الحجرات الطولانية التي تختلط فيها العناصر المشرقية والمغربية. ويكمله صنف آخر من الديكور يذكرنا بحيوية بتزويق القاعات الرومانية في القصور والحمامات وغيرها من الأبنية الفاخرة.

إن جميع الأبنية العامة عثمانية باستثناء بعض الجوامع مثل الثكنات والتحصينات والبطاريات التي تبدو إنها تحمى المدينة بصورة ممتازة من جهة البحر بينما تتطلب الأبنية من جهة البر الكثير من العناية مثل السجون والمستشفيات وغيرها ولو أن هذه الأبنية لم تشيد جميعها من جانب العثمانيين، إلا أنها تحمل طابع شخصيتهم التاريخية الحضارية والذي لا يمكن تجاهله وإنها تلفت نظر الغريب الذي لا يعرف سوى الطابع العربي وبذلك فإنها ذات وقع سلبي إلا أن ما يعتبر بالغ الندرة هو وضع الجوامع وعلى الأقل أكبر الجوامع واجلها التي تتبع المذهب الحنفي ليس له أتباع في صفوف العرب في الشمال الأفريقي. أن الحنفيين بما لهم من غلبة وباعتبارهم الحكام وجدوا بالطبع أن الانصياع لا يتناسب وقدرهم وهكذا أصبح مذهبهم خلال القرون المذهب

المسيطر ودفع بالمذهب الآخر إلى المكانة الهامشية وبذلك أصبحت الآن جميع المساجد الكبيرة والفخمة في طرابلس في حوزة المذهب الحنفي وهي المساجد الوحيدة التي تمتاز بمآذنها البرجية ذات العمارة المشرقية التي وصفناها ولا يقل عدد جوامع الحنفية في طرابلس عن ثمانية ولم أضمن هذا العدد المساجد الصغيرة والزوايا التي توجد بأعداد كبيرة في كل مدينة إسلامية ولا اعتقد أنه من باب الحشو إذ ما أوردت هنا أسماءها وأن أعلاها شأناً وأفخمها:

1) جامع أحمد باشا – أحمد باشا القرمانلي وقد شيد في العام 1737-1738 م وقد بناه هذا الأمير القرمانلي الذي أمن لأسرته حكم البلاد وراثيا في مطلع القرن الثامن عشر ولا تمثل عمارته ما يثير الانتباه وهو مثل بقية جوامع طرابلس. فقد شيد على أساس ابسط نماذج المشرق إننا نفتقد هنا تماما تلك النماذج التي بنيت في اسطنبول مقلدة مخطط كنيسة أيا صوفيا البيزنطية، وعلى العكس من ذلك تتكون هذه الجوامع كافة من قاعة مربعة بسيطة تقترب في شكلها من البناء المربع الذي تحمل سقفه أعمدة يشتم منها أنها من العصر القديم. أما داخل جوامع طرابلس فيما لو سمح لي بدخولها فلن يكون بوسعي الحديث عما ماهو ذو أهمية فإن بيوت الصلاة تكاد تكون خاليا من الزخرف وهي مفروشة بحصر من القش وربما بأبسط الفرش.

2) الجامع الثاني من حيث الكبر يدعى جامع سوق الترك لأنه يقع في هذا السوق إلا أن اسمه الخاص جامع شايب العين {1689-1701} وشيده الوالي محمد باشا الملقب بشايب العين.

3) أما جامع سيدي درغوت فهو أصغر في مبناه وأعظم في صيته وقد سمي نسبة إلى درغوت أو درقوت الشهير باعتباره احد غزاة البحر الشجعان الذي أثار الاضطراب في الشواطئ في عهد شارل الخامس واخضع طرابلس لسيطرته وهو على الأغلب أقدم جامع لمذهب الحنفي في طرابلس.

4) جامع الحاج مصطفى قرجي عادة ما يدعى ببساطة القرجى، ويتميز بشكل يشبه نظام المبنى المركزي وبزخارفه الكثيفة التي تتشكل من المرمر والقيشاني كما يختلف عن الجوامع الأخرى أنه يمكن الدخول إليه من الشارع مباشرة دون المرور بالأفنية الأمامية ويعود بناؤه 1833-1841.

5) إن جامع محمود ليس بعيدا عنه وهو بيت عبادة وبسيط يقع وسط فناء تحيط به أسوار عالية.

6) جامع الخروبه.

7) وجامع الدروج.

8) جامع سيدي سالم المشاط.

جميع هذه الجوامع تابعة للمذهب الحنفي، وتتميز بمئذنتها ذات الطابع المشرقي، على أنه في بعض الحالات تتخذ شكلا معدلا، وهكذا فإن المئذنة في حالة الجامع الأول والثاني والرابع ذات شكل سداسي حتى الشرفة الأولى إلا أن الزوايا معمية إلى درجة أنه تبدو من بعيد وكأنها مدورة.

إن الجزء العلوي منها مدور دائما ويختلف الوضع في حالة جوامع المذهب المالكي الذي يتبعه العرب الحقيقيون وأحفاد البربر المستعربين جميعاً وله في

طرابلس عدد كبير من الجوامع. إن مآذن هذه الجوامع تتبع النموذج المغربي القديم المربع الشكل وتتوجه فرضات ويحمل زخارف على الجدران الخارجية للمآذن العريضة.

إلا أن هذا النموذج الذي نجده في المغرب والجزائر وفي بعض أبنية الأندلس في ذروة تطويره وروعته فإنه هنا في ابسط حالاته فالمآذن منخفضة إلى درجة إنها لا تعلو عن الجدران التي تحيط بالأفنية الأمامية وهذا الانخفاض يعود إلى أن الجوامع المالكية تقع في الأحياء البعيدة، حيث يعيش الأهالي مبتعدين عن الأتراك، ويتأتى عن ذلك أن هذه المآذن المغربية الأصلية لا شان لها في تشكيل المنظر الخارجي لمدينة طرابلس، إلا أن المآذن ولا شك قديمة جداً لأنها ذات طابع يذكر بمنظر أبنية العصر الوسيط، ومن المحتمل أنها قد شيدت قبل مرحلة حكم الانكشارية إن هذا القدم وما يقترن به من تصدع في البناء، لا يظهر بالطبع من الخارج، يبين لنا الوضع الغريب التالي الذي لا مثيل له في البلدان الإسلامية وهو أنه ما من مئذنة من مآذن الجوامع المالكية قيد الاستعمال. إذا أن الأذان للصلوات الخمس لا يرفع من هذه المآذن بل من فوق عتبة باب الجامع، ولذلك تظهر مآذن جوامع المالكية هنا كشواهد تاريخية على زمن كانت فيه السيطرة لأبناء البلاد.

لما كان هذا الوقت قد انقضى منذ زمن بعيد، فقد هبطت جوامع المذهب المالكي إلى مكانة عديمة الأهمية نسبيا، ولم يكن بوسعي أن أكتشف سوى أربعة منها يحق أن تدعى جوامع إلا أنه يوجد ما يزيد عن عشرين مصلى وترب مرابطين وزوايا تابعة للمذهب المالكي والجوامع هي :

1) جامع الناقة ويعتبر من أقدم الجوامع الذي تعرض للخراب أكثر من مرة ويعود في شكله إلى مطلع القرن السابع عشر.
2) جامع ابن مقيل.
3) سيد عطية الفلاح.
4) جامع العقاب.

وفيما عدا هذه الأبنية المخصصة لإقامة الصلوات، فإنه يوجد في طرابلس عدة مدارس ومؤسسات دينية التي تشبه المدارس الديرية في القرون الوسطى أو المعاهد الإنجليزية. ويتعلم فقراء المسلمين فيها دروسا دينية وهي العلوم الوحيدة التي مازال المسلمون يهتمون بها وتقدم لهم فرص الإقامة ويتقاضون منحاً في بعض الأحيان ولما كانت المدرسة ذاتها تعتبر مكانا مقدسا أيضا، فإن المسلمين يعتبرون أنه من المستحسن أن يدفنوا فيها ولذلك فقد نشأت على مقربة من هذه المؤسسات مقابر صغيرة وكبيرة أو ترب وهي تأخذ جزءا كبيراً جداً وتعتبر مدرسة عثمان باشا إحدى أجمل المدارس وتحمل اسم مؤسسها وهو أحد الولاة العثمانيين المشهورين من المرحلة السابقة للقرمانليين وتقع على مقربة من مسكنى ومن جامع درغوت باشا ويتكون في الداخل من وسط الدار (الفناء) تحف به أعمدة تقوم وراءها غرف الطلاب وفي كل جهة من الجوانب الثلاثة يؤدى باب إلى الهواء الطلق وبالأحرى إلى مقبرة تحيط بهذا المبنى الديني، وأن الأضرحة ظاهرة من خلال مادة أو حجارة تحمل نقوشاً نقشت بصورة فنية تماماً وفي إحدى هذه المقابر توجد تربة ذات قبة مثنمه من الداخل ومدورة من الخارج يقوم تحتها ضريح قبر مرابط قيل لي إنه ممن درسوا في هذه

المدرسة قبل قرون قد قضي حياته في ظل البركة والأعمال العجيبة في المدرسة ذاتها وإن مثل هذه المؤسسات لا تؤمن الطلبة وهم في سن الشباب فحسب بل تضمن لهم طيلة حياتهم المأوى والطعام.

إن عدد قبور الأولياء كثير على وجه العموم إلا أنهم لايتمتعون جميعاً بنفس المقدار من التبجيل، بينما يوضع ضريح كبار الأولياء في قباب فاخرة لا يقل حجمها في الغالب عن جامع. وعادة ما يجتمع فيها يوم الجمعة عدد كبير من المصلين وكمؤشر على ذلك يثبتون راية أو عدة رايات بيضاء وخضراء فوق الضريح. وأما أضرحة عامة الأولياء قلما تلفت النظر لعدم أهميتها.

ومع هذه الأبنية الدينية سواء كانت جوامعاً أم مدارساً أو ترب أولياء تقوم هنا أيضا كما هو الحال في البلدان الإسلامية الأخرى مؤسسات التعليم العام وجميع ما يوجد منها في طرابلس عديم الأهمية باستثناء مدرسة واحدة إنها مدارس قرآنية عادية وتدرس في أبنية ذات مظهر بالغ التواضع.

تمثل الرشدية حالة استثنائية، وهي مدرسة أسسها الباشا الذي يدرس فيها بالإضافة إلى القرآن اللغة العثمانية والفارسية التي لا يستغنى عنها علمهم قواعد العثمانية وهذه المدرسة تمثل إحدى التحسينات المختلفة التي تدين بها المدينة لعقلية الوالي علي رضا باشا المتنورة لقد تميز مالتسان عن سواه من الأوربيين الذين زاروا طرابلس ووصفوها انه انفرد في إشارة إلى مواضع لم يذكرها سواه ونختار مجموعة منها

*** رحلة رولفس إلى الكفرة 1878 ـ 1879**

زار غيرهارد رولفس إلى ليبيا للمرة الرابعة في **1878 ـ 1879** قصد التوجه إلى وداي لتقديم هدايا إمبراطور ألمانيا إلى ملكها وتأتى هذه الزيارة بعد عشر سنوات من رحالته الأخيرة و لأحض ازدياد في عدد السكان وازدهارات في الصناعة والتجارة وتطوراً في المدينة حيث ظهرت المدينة الجديدة خارج السور كما انه لمس تحسينات في المدينة. فقد أدخلت الإنارة ولكن الشوارع ما زالت موحلة ومغبرة مثل السابق وما زال السوق يحمل نفس المظاهر إذا ما غض النظر عن تنوع أكبر في البضائع الأوروبية. وخاصة في الخزف والزجاج. فقد نشأت أمام أبواب المدينة باتجاه المنشية ضاحية جديدة تماماً وأصبحت الآن مركز الحياة التجارية وهي تطمع أن تصبح مدينة جديدة حقيقة بكل ما في الكلمة من معنى إذا ما غادر المرء باب البحر ذا الحراسة المشددة فإنه يصل إلى مجموعة من المقاهي العربية التي تختلف تجهيزاتها في سوئها وجودتها وكل منها لها شرفة عريضة أمامها وضعت تحتها كراسي ومقاعد وطاولات ويجلس فيها طوال النهار مسلمون ويهود وقد ارتدوا ملابس مترفة وفي الغالب أيضا أوربيون طرابلسيون.

إلا أن المؤسسات الأضخم تقع على مسافة أبعد وهي بالإضافة إلى الوكالات التجارية فنادق كبيرة أو مخازن للحبوب والحلفا. وإذا كانت تجارة الحبوب في طرابلس الغرب تتعلق بتأثيرات المناخ، فبعد سنة مطيرة تكون ممتازة، وإذا كانت الأمطار قليلة تكون ضعيفة وفي الغالب يستمر الجفاف وقلما يحصل موسم، فإن تصدير الحلفا في تزايد من سنة إلى أخرى والحلفا ليست خاضعة

للتأثيرات المناخية مثل الحبوب ولو أنه في السنوات المطيرة يمكن الحصول على نبتات أكبر وعلاوة على ذلك فإنها لا تتعرض لخطر الجراد وتبدا منطقة الحلفا أي النوع الأفضل لصناعة الورق من الحدود التونسية وتورد الحلفا إلى الإنجليز، ويقوم أبناء الريف بنقل الحلفا على شكل حمولة جمال إلى طرابلس حيث يستلمها وكلاء البيوتات الإنجليزية غالبا بسعر أرخص أو أعلى وبعدئذ تخزن حمولة مائة جمل وأكثر في فناء الفندق وتخضع لعملية تنقية كاملة وتؤخذ عندئذ فقط النبتات الخضراء، ذات الطول المناسب وأما اليابسة منها أو متشابكة والمتضررة وذات الجذور فإنها تستأصل. وبعد ذلك توضع الحلفا تحت المكبس وتحزم بأشرطة حديدية ثم تشحن مثل بالات القطن.

كما يهتم الأوروبيون بتصدير ريش النعام وعاج الفيل والشمع و إضافة إلى غبار الذهب والسلع الصغيرة الأخرى. أما بالنسبة لأبناء البلد فإن استيراد الرقيق من وسط أفريقيا ما زال له شأن لا يجب التقليل منه.

ويقدر عدد الرقيق الذي يحمل من وداى إلى طرابلس بقافلتين بحوالي 1000 حتى 1200 وهم على الأغلب من الأطفال وإن القسم الأكبر منهم يبقى في الولاية إلا أن كثيراً منهم أيضاً يعبرون البحر المتوسط إلى اسطنبول والولايات العثمانية الأخرى. وعلى كل حال لا توجد تجارة الرقيق في طرابلس الغرب وحدها بل في كل مكان ينتشر فيه الإسلام.

وإذا ما تقدم أي شخص باتجاه الداخل فإنه يمر بفنادق كبيرة مليئة بالحلفا ويصل إلى قرية السود وهذا المكان الذي يتجمعون فيه جميع الأشخاص المريبين ليلا ونهاراً يغنى السكان السود المعتوفون الطربون ويمرحون ويرقصون

ويستهلكون كمية لا يستهان بها من اللاقبي" وهو مستخرج شجر النخيل" والعرق. وإذا ما شاهد المرء أمامه هذه الأكواخ المشيدة من جريد النخيل والقش فإنه يعتقد كأنه في وسط أفريقيا وإذا ما سمع بعدئذ تلك الأشكال السوداء، وهذا يتكلم الهوسة وذاك الكنوريه والثالث الباقرمية أو لغات سودانية أخرى.

أما عن طرابلس الجديدة تمتد الآن حتى جافة بساتين المنشية وكانت هذه في السابق منفصلة طبيعياً عن المدينة الأصلية سهل رملي عريض. وقد يكون عدد سكان طرابلس الأصلية قد بقى على ما كان عليه وتتطابق التقديرات السكانية عند ناختيغال ولدي كما اكتسبت المنشية بستان نخيل طرابلس منظراً متغيراً وليس ذلك فقط من أن الأهالي الذين يسكنون بين البساتين ووسطها قد تزايد بل تزدهر حاليا بيوت ذات إطلالات جميلة { بيلفيد ير} أو حانة الخمر أو حانة البيرة وهذا ما يثبت لتقدم الأهالي في معرفة المشروبات الأوروبية.

*** الرحالة هنري ميهيى دى ماثيسيو:**

أن ماثيسيو من الرحاليين التاخرين الذين وفدوا إلى ليبيا بمهمة رسمية في إطار الاهتمام الرسمي الفرنسي فقد أوفده وزير التعليم الفرنسي إلى ليبيا لدراسة الأوضاع عن ليبيا وكانت المدة الأولى في سنة **1901** والمرة الثانية **1903** وفي الحالتين قدم تقارير عن مشاهداته واتصالاته وأرائه بخصوص الأوضاع العامة ومواقع الأماكن الأثرية وقام بعده بتأليف كتاب بعنوان " عبر طرابلس الغرب " يركز فيه على المناطق التي زارها وخاصة المراكز

الساحلية والجبلية في منطقة طرابلس وزود كتابه بإعداد من الصور الهامة. ونورد فيما يلي مختاراته من وصفه لمدينة طرابلس. ونـورد أولاً وصفه السوق المدينة " الطرق في الحي التجاري محمية من أشعة الشمس بواسطة ألواح خشبية تربط طرفاً إلى أخر ويتخلل الضوء هذا الظل الخفيف من خلال الفراغات بين الألواح ويرسم كل أنواع الأشكال الغريبة وعندما تسقط حزم من الضوء على قماش ذي ألوان صارخة، أو على شئ من المعدن المصقول فانه ينفجر بتوهجات تعمى الأبصار تصطف أعداد لا تحصى من المتاجر المتلاصقة والمتشابهة كتجاويف خلية نحل. وهي مظلمة لدرجة يصعب مهعا تميز المؤخرة. على المداخل، يجلس البائعون عرباً ويهوداً وتركاً القرقصاء لا يتحركون كما لو كانوا مثبتين للأرض وينفصلون بالاهتزاز قليلاً عندما يأتي المشترون من البربر والزنزج.

البائعون بالتجرئة للبسط الطرابلسية والبرانيس الفزانية والشاشيات العثمانية والطرائف السودانية، والبقالون الدين يبيعون السجائر بشكل خاص، والسمكريون الدين يبيعون كذلك الاركبة، تاجرو الأسلحة الذين يوفرون بنادق قديمة بالحجر لرعاة الصحراء، وتجار الحبوب الذين تملا لديهم ربات البيوت المحجبات قفافهن بالشعير والذرة: كل هذا التجمع من صغار التجار لا يصرف بسهولة سلعة لان الزبون يمر ويعاود المرور مرات قبل أن يتخذ قراره بالشراء.. يحتوى كل دكان على القليل جدا من الأشياء، وقد لاحظت أن منها مالا يحتوى على شئ تقريبا. أن طرابلس التي اكتسبت في الماضي شهرة أنها متجر وسط أفريقيا تفقد بشكل متواصل من أهميتها التجارية لان ندرة

القوافل السودانية تزداد ولان الجفاف أفقر مزارعي الولاية أكثر فأكثر لا تحتوي الأسواق إلا على سلع دون قيمة تذكر. لقد أصبحت الحزم الثرية من العاج وريش النعام التي تأتي بها القوافل تزدرى هذه الأكواخ الداعية للرثاء وتتجه مباشرة الى محلات التجار الأوربيين في انتظار شحنها الى باريس بالرغم من ذلك الدين فالملابس المحلية في تونس أكثر فخامة منها في طرابلس فانها لاتمتلك التنوع المدهش للملابس في الشوارع الطرابلسية التى شبهت بحق بمتحف انتروبولوجى. وعلى بوابة الباشا على طول الأزقة المخصصة للصناعات التقليدية. وتجد نشاطاً كبيراً بين هذا الجمهور من الفخاريين والحدادين والمطرزين والحائين والخياطين. وكما توجد بالقرب من البوابة العديد من المطاعم والمقاهي، وفي المدينة مساجد مثل مسجد قرجى والناقة وغيرهم من المساجد على النظر إليها من الخارج لان دخولها ممنوع بشكل مطلق ولا يثير الاستغراب مثل هذا المنع في هذا الإقليم حيث التعصب الإسلامي أكثر حدة منه في أي مكان أخر، فالمساجد مقفلة أمام الأجانب حتى فـي مـدينة تونس ووحدها مساجد القيروان دون غيرها مفتوحة [للاخرين]. وأنها المدينة المقدسة بحق، لكن مساجدها استبيحت من قواتنا إثناء الغزو، وعندما يستباح الجامع مرة يفقد طابعه الربانى. مع هذا يوجد في طرابلس مسجد استبيح لغير علم المؤمنين من قبل شابتين انجليزيتين وهو جامع الباشا أجمل مؤسسة دينية في طرابلس دون نقاش وهو كنيسة اسبانية قديمة حولها القرمانليون أولاً إلى مقبرة وقد توجد في هذا المسجد أبواباً خشبية منحوتة في غاية الروعة وشعرية غريبة.

وفي الحقيقة لا تستحق الأسوار الممتدة في البحر التسمية بالرصيف لأنها لا تشبهه في شئ شكلاً، ولا تؤدي مهمته، وإنما سميتها هكذا لأنها تحتل الموقع حيث يتطلب الحد الأدنى من التقدم بناء أرصفة للركوب أو الشحن. كما في زمن القراصنة الأوائل لهذه الأسوار العريضة جدا التي تهيمن على الماء بعمق عشرة أمتار، متارين عالية لدرجة لا يمكن معها رؤية المرسى من الزقاق الضيق على الحافة وبالكاد يتجاوز الطابق الوحيد للمنازل الواقعة في واد على الجانب الأخر لهذا الممر. خط الذري غير المتناسب. لا يعطى هذه التحصينات أي اعتبار للخط المستقيم وتجهل تكومها الساذج اقل المتطلبات الضرورية للدفاع العسكري وهي تنسجم مع الطابع الاقتصادي لطرابلس.

وللخروج من الحصار الحزين للأسوار التي تخنق المساكن الصغيرة الشديدة التكدس في المدينة، تستعمل في اغلب الأحيان بوابة الباشا في أسفل القلعة لأنها تؤدي إلى الأحياء الجديدة حيث الأسواق والمعسكرات والحديقة العامة. قبل خطوات من هذه القبة المعمورة بكثرة. يقوم برج الساعة التي تُبين الساعة على الطريقة التركية أي من ساعة إلى 24 ساعة بداية من الفجر. لا يتميز هذا الصرح المربع الزوايا بشى إلا بالتصرفات السفيهة التي ادين بها والٍ سابق لبنائه، فقد دفع السكان المحليون أربع مرات قيمة البـرج قبل رؤيته يرتفع [الحنفية] العامة، على الطرف الأخر للخروج، عبارة عن مكعب ضخم يخرج منه قليل من الماء، ولكن مهما كان سيلانه ضعيفاً فيميزه انه الماء الجارى الوحيد في طرابلس: في كل الأماكن الأخرى تمثل الخزانات القديمة

مصدر المياه. ومع ذلك يغفر لهذا البناء قليلاً ثقله بسبب أعمدته الصغيرة في الزوايا وافزيزه المفرغ الذي لا يخلو من لطافه.

تغطى ساحة الرمل الضخمة التي يغسلها البحر على جانب بينما تداعب الجوانب الأخرى أول أغصان أشجار المنشية محلات الحرفيين في الجزء الأقرب إلى المدينة. تتجمع ورش السروج والسلاح، وتجهيز الجلود المذبوغة، ونسيج الحلفا.

ولقوس النصر الروماني الشهير الذي يشكل البقايا الوحيدة من العصور القديمة في طرابلس. في ذلك الأوان كانت الشمس الغاربة تـذهب القلعة الدائرية المنخفضة التي تحمل " المنارة الفرنسية " لتسميتها بهذا الاسم وقوس النصر المشار إلية نصب رائع جعل منه السكان المحليون ملهى. وانه يبدو عظيما جدا بالرغم من أن نصفه مطمور في الأرض. أن ثلاثة من الأقواس الأربعة لهذا البناء المربع مسدودة، ولا يمكن رؤية إلا الواجهة التي بقيت مفتوحة لان المتاجر تضيق الخناق على الواجهات الأخرى بقربها الشديد منها. لا يمكن العثور على قوس نصر مكون من قطع من الرخام بهذه الضخامة حتى في روما نفسها. يثار التساؤل من أين جاءت مثل هذه المواد، خاصة وانه لا يعرف أي محجر لهذا النوع من الحجر بعيداً في كل الاتجاهات حول طرابلس. وتزداد الدهشة عند التحقق من أي هذه القطع ليست مثبتة وإحداها إلى الأخرى باي اسمنت. تكفي مسامير من الحديد غير المرئ لتثبيت هذا البناء العريق بشدة. لقد شيد هذا القوس على شرف الأباطرة مارك ـ اوريل وفيروس كما توضح ذلك كتابة الأحرف الأولى من الأسماء وكانت الأشكال وزخارف

بشكل أكاليل وشعارات بأسلحة نال منها الزمن لسوء الحظ وجعلها فظة خشنة. في الداخل مزين برسومات بارزة رائعة. ولان علماء الآثار من العالم المتدين غير مصرح لهم بالتنقيب في هذا المكان، فمن محاسن الصدف أن بقى النصف الأسفل من هذا النصب محمياً مؤقتاً بالتراب. بالإضافة إلى الجيش، يجب إضافة الشرطة والزابطية الذين يلعبون دور الدرك ولكنهم لاينتمون إلى الجيش. حيث يخشى المواطنون كثيراً هؤلاء الدرك ويطيعونهم قسراً. كما في كل أفريقيا الشمالية، ينقسم العرب في طرابلس الغرب إلى أقوام مستقرين وقبائل رحل أنهم هؤلاء الرعاة الرحل الذين قضوا على الغابات لتحويل الأراضي إلى مراعٍ. وفي ذلك الوقت، كان الرجال مدعاة للشفقة أكثر من الحيوانات في طرابلس لان الرق كان فيها بأبشع صورة.

أما المرسى يكاد محاط بصخور بحرية من الشمال وكان ملجأً سيأً، في بعض الأيام لا تستطيع البواخر الأسبوعية الرسو وتضطر للعودة دون إنزال المسافرين والبضائع هذا ما حدث لقنصل انجلترا وأسرته عند عودته من عطلة [لك أن تتصور كم هو مبعث سرور ـ قالت لي زوجة الممثل الانجليزي ـ أن تلمح شرفات بيتك بعد ستة أيام من دوار البحر، تم ترجع دون الوصول إلى بيتك لتبدأ أسبوعاً كاملاً من الضيق والمشقة].

تسمى الواحات المتصلة في شكل نصف دائرة المحيطة بطرابلس " مثل عقد من الزمرد " وفقا لعبارة سعيدة قالها مؤلفون عديدون، المنشية. أن كلمة " مشيه " نفسها مالطية وتعنى حدائق وتساوى التعبير العربي " سانية " وجمعها " سوانى " أنها في الواقع حدائق مزروعة أو غيضات ترويح يقوم بالاهتمام بها سكان

الناحية. أن هذه المنطقة الخضراء المحيطة بمشارف المدينة الجرداء، عبارة عن هلال عرضه أربع كيلومترات، تتغير فيها مصاهر المواقع كثيراً. من بينها مواقع طرقها محدود بسياجات مرتفعة ومظللة بأشجار جميلة تشبه رسماً مبدئياً لمفترق طرق وفي أماكن أخرى يمكن من فوق حواجز من الطين ومن التين الشوكي رؤية بسط رائعة من الخضر حيث تلقي نباتات النقل لوناً اخضر - رمادياً لماعاً لدرجة تبعث على الاعتقاد بأنه اصطناعي وتنشر أشجار النخيل مظلاتها عالية تاركة مكاناً فسيحاً لأشجار الفاكهة الأخرى ويمكن أحيانا تحت هذه الحماية الخيرية تمييزاً أشجار الليمون اللذيذ وأشجار البرتقال والرمان والمشمش والتين والزيتون والبرقوق والخروب والموز والزيزفون والتمر هندي. وعلى مستوى الأرض تيتالى القطن مع حقول الشعير مع الذرة والبطيخ ويولد هذا تدرجاً ثلاثيا للنبات له منظر عام من أعجب ما يكون، خاصة في هذه الفترة، حيث تكون المنشية في تمة جمالها وسحرها خلال شهري الطير، والماء لقد ازدهرت أشجار التين في الشمال الأفريقي وأقراصها الشائكة محاطة بصف من الحبات الصفراء تجعلها تشبه الرصائع. وتوجد سواري ضخمة بيضاء تنتصب عموديا كل اثنتين على حدة. أنها ركائز الآبار تصدر بكراتها غير المشحمة ضجة مزعجة صوت وهي ترفع ولاء من الجلد الماء من الطبقة المائية تحت الأرض وتوزعه على السواقي في كل دقيقة. ويقوم ثور صغير أو حمار بجذب الحبل متبعداً عن مثاب البئر وفق سطح مائل يقلل الجهد المبذول من الحيوان.

وعند نهاية الساحة الخارجية بين الشاطئ والمعسكر التركي توجد حديقة عامة التي أقيمت بشكل مصطنع في الرمال. ويعود الفضل في انشاء هذه الحديقة

الصغيرة العامة المتواضعة إلى فؤوس الجنود ومرشاتهم، ووضعها المشير مجاناً تحت تصرف المتنزهين وهي تمتلى أيام الأحد بالمالطين الذين ينفقون ما يقصدونه على استجار عربة للوصول إليها. وفي مدخل الحديقة، يحيط الجنود باثنين من زملائهم يتصارعان بالأيدي فوق الرمال ويوجه الضباط من أعلى مقصورتهم الأنيقة هذا المرح ويشجعون الهواة الذين يحتل كل زوج منهم ميدان المصارعة عندما يأتي دوره.

استمرت أعمال التهريب الأسلحة لأصحاب القوافل بالسلاح والبارود من اجل الإفلات من الترتيبات التركية يشتري مهربو الداخل بنادق فعاله وذخائر من تجار السلاح السريين وتباع السلع الممنوعة بأسعار عالية جدا وغالبا ما تكلف بندقية بسيطة من نوع ومنجتون، العربي 500 فرنك. واستمر أعمال التهريب في الازدهار وتستمر الزابطية في متابعتها. أن حيازة اقل قارب تكفى لجعل التهريب مستحيلا ولكن طرابلس بلد عثماني حيث العادات جامدة وحيث بذل الجهد مجهول عليه، ولا يبذل أي جهد لإعاقة تجارة التهريب وتوقيف المهربين.

أصبحت طرابلس خلال القرن الماضي نقطة اتصال التجارية بين بلدان حوض تشاد والصناعات الأوربية بفضل جهود سكان غات وغدامس ذوي الطبيعة المبادرة ولكن حركة التبادل بالقوافل عبر الصحراء تتناقص بشدة منذ بعض الوقت. حيث حدث التباطؤ في هذه الحركة التي كانت ضخمة في الماضي فجأة تقريباً. ويجب تحميل المسؤولية بشكل أساسي على المغامر رباح*.

*- ثائر سوداني المعروف في القرن التاسع عشر

الذي تسبب بتخريبه كردفان ودارفور والوداي والبيقرمى في إفلاس عدد من كبار أصحاب القوافل. وربما هزت الموانئ الجديدة التي فتحها الفرنسيون والانجليز والألمان في السودان على الأطلسي ثقة الطرابلسيون في احتكارهم. واحد أسباب الثانوية، ولكن المؤكدة، لنقص حركة التبادل بين الأسرات يتمثل في فقد ريش النعام البري الذي كان يأتي به التجار من كوكا وسوكوتو وابشة والفاشر اذ يفضل عليه حاليا ريش النعام المربي في راس الرجاء الصالح. وتتكون القافلة من ثلاثين جملاً تقريباً ومن عدد مساو تقريبا من السائقين ومن بعض المسافرين المستقلين الذين يضعون أنفسهم تحت حماية القافلة ولا تتجاوز حمولة حيوان النقل 120 كيلو جرام ويختص المصرفيون الموصون لتجار الصحراء المسافرين بنصف الأرباح. يحمل هؤلاء السائقون أقمشة قطنية انجليزية ونسيج الكتان والحرير والسكر والشاي ومجوهرات من المرجان وعطوراً يحضرون معهم إلى الساحل وريش النعام والعاج والجلود المذبوغة. لا يوجد من بين بيوت التوصية في طرابلس، بيت موص واحد تحت إدارة فرنسي، ويقتصر العلاقات التجارية لبعض الإنجليز والإيطاليين الذين يزاولون نشاطهم التجاري فيما على استيراد صغير جداً لسلع أوربية في الميناء أنهم الأتراك والعرب واليهود الذين يمسكون بكل التجارة عبر الصحراء. تدفع السلع جمارك مقدارها **8** ٪ من القيمة للدخول و**1** ٪ عند الخروج. وتعتمد القوة الشرائية للطرابلسين بالكامل على محصول الشعير، وهذا السبب وراء الانخفاض الكبير لحركة الأعمال منذ بعض سنوات تناسبياً مع فترات الجفاف المتعاقبة. ومع هذا فقد زاد المستوردون الإيطاليون حصتهم منذ أربع أو خمس سنوات،

واحتلو المرتبة الأولى فيما يخص بعض السلع. هكذا بعض تلخيصات والتقلبات التجارية منذ **1870**: من **1870** إلى **1885** فترة من الازدهار النسبي بأرباح تتراوح بين **30**٪ و**40**٪ ومن سنة **1885** م إلى **1890** هبوط ملحوظ بسبب انخفاض قيمة ريش النعام في سنة **1890** ارتفاع مؤقت للحركة التجارية بشكل عام. منذ **1891** م انخفاض جديد يعود بشكل خاص إلى تدهور التجارة عبر الصحراوية [عمليات السلب التي قام بها المغامر رباح]. حيث يصل المتوسط الحالي السنوي لحجم التجارة عشر ملايين للصادرات منها 3.5 مليون لفرنسا، وعشر ملايين للواردات منها 2 مليون للسلع الفرنسية لم تكن الحلفا التي صارت سلعة التصدير الرئيسية، مستعملة من قبل السكان المحليين حتى السنوات الأخيرة إلا في تغذية الحيوانات خلال فترات الجفاف أو لصناعة الحصر. لقد احتكرت المصانع الإنجليزية هذا النبات لصناعة الورق: فمن طرابلس وزليتن والخمس تُبعث إلى بريطانيا العظمى أكداس من الحزم المضغوطة تصل قيمتها تقريباً إلى ثلاثة ملايين. تأتي بعد ذلك الأصواف والجلود التي تصدر إلى ايطاليا ومرسيليا وريش النعام الذي يوجه كله إلى فرنسا ينقسم إلى مجموعتين مختلفتين تمام الاختلاف في القيمة والمظهر: النوع الذكر [ابيض أو اسود] وينقسم هذا النوعان إلى أنواع فرعية عديدة: فرنسا الأولى، فرنسا الثانية، وذيل السقط، الزهرة السوداء الثانية، والباجوكو واللسين وغيرها.

يصطاد الإسفنج على كل الشاطئ من تونس حتى برقة والإسفنج الذي يجئ بالشباك أحسن من الإسفنج الغواصين.

ومن بين الصادرات أيضاً الحبوب (الشعير) والحناء والبيض واللوز والعاج والبرتقال وملح والنطرون، إما الواردات فالأقمشة القطنية الإنجليزية تحتل المرتبة الأولى. يأتي بعدها الدقيق والسميد وتتركز ايطاليا على هذه السلعة كل جهودها بشكل خاص وقد نجحت في ذلك بفضل أسعارها الضئيلة على حساب النوعية. مازال السكر يحتل في الواردات موقعاً مهما بالرغم من حركة التهريب الضخمة التي تمارس من الجزائر والصحراء. كما يمثل الشاي، الذي يحل شيئا فشيئاً محل القهوة باقي الواردات مع الحرير والعقاقير والأرز والمصنوعات الزجاجية والقياطين والقرطاسية وغيرها أجمالاً، تتلخص تجارة طرابلس الغرب في حركة متناهية الصغر ويبدو أنها في الطريق لانخفاض مستمر. هناك مجال للبحث عما إذا كان يمكن تحسين هذا الوضع ببعض الإجراءات وعما إذا لم يكن في الامكان تحويل التجارة الصحراوية لصالحنا في اتجاه قابس.

ويزدحم السوق الخارجي كل يوم ثلاثاء، عندما ما تدخل السفينة الفرنسية الميناء ويقلب هذا الحدث الأسبوعي المدينة رأساً على عقب إذ تؤمن القنصليات الفرنسية والإيطالية خدمة البريد الأوربية، حيث تأتي سفن البلدين بأكياس من الرسائل ويوزع البريد في أفنية مقرات القنصليين تحت إشراف الموظفين. ويأتي الأجانب والعرب إلى هذه المقارات لاستلام مراسلاتهم.

وتنقسم حزم البضائع، في السوق المتنقلة إلى أجزاء وفقاً لتخصصها فبالقرب من الحنفية العامة تشكل دكاكين الحلاقين الصغيرة، وسلال بائعي الخضار الزنوج أول التجمعات التي تقابل عند الخروج من المدينة. إن الخنزارات في مزارعنا تشكل مناجم عطور إذا ما قورنت بحوانيت الحلاقين الطرابلسيين. أما

عن السود بائعي البصل والجزر فان اغلب تجارتهم يمكن أن تشترى بجفنه من الفلوس ابعد قليلا من هناك تمثل أكياس الشعير راس مال حقيقي: انه المادة الأولية في كل طعام، إذ يضع منه الدقيق والسميد والمحمصة واغلب مكونات المطبخ المحلى. ويعد منه الخبازون خبزاً بالزعفران ثقيلاً ولزجا يعرضونه على منصات بالقرب من أكوام الحبوب. ويقوم صناع الشاشيات في الهواء الطلق أمام محالهم التي لها شكل قبعة الشرطي بصناعة غطاء الرأس الأحمر للاتراك والعرب. في أخر الساحة قريباً من الشكنات تقوم طواحين الحلفا بتكديسها في شكل قباب خضراء على الرمل.

*** الرحالة إفالد بانزة 1883ـ 1953م**

ولد إفالد بانزة في **1883** في مدينة براونشفايغ وما أنهى دراسته الجامعية حتى توجه مع زوجته ووضع مخططاً لسلسلة من الرحلات في المنطقة الإسلامية وكانت أول مخطط له مدينة طرابلس التي وصلها عن طريق مالطا في أواخر **1906** ومكث في طرابلس للتخطيط لرحلة تحمله من طرابلس إلى فزان وبرقة وأن يضع لها خرائط وكان ينوى أن يستغرق هذه الرحلة شهوراً وقام بإعداد نفسه لهذه الرحلة أنه لم يحصل على إذن من الحكومة العثمانية للقيام بها فانصب معظم نشاطه على دراسة طرابلس وضواحيها إذا قضى أثناء زيارته الأولى أكثر من عام في المدينة والمنشية.

أما زيارته الثانية فكانت **1909** بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد عاد بانزه إلى طرابلس لكي يعيش فيها عدة سنوات يزور خلالها الكفرة إلا أن المرض حال دون ذلك وبعد تعافيه من المرض وضع كتاب طرابلس ونشره في

1912 ونشر عنها مقالة في 1917 بعنوان " طرابلس الجديدة تماماً " يبين فيها أنه قد زار طرابلس للمرة الثالثة 1914 وقدم لنا دراسة عن طرابلس الجديدة ومعلومات هامة عن وضع المدينة تحت الاحتلال الإيطالي وقام بزيارة منطقة البطنان وقدم مقارنة بين الجفارة والبطنان في دراسته عن دواخل طرابلس التي وضعها لوصف رحلته إلى غريان.

كما كان لبانزة عدة مقالات التي تناولت دراسة عن ليبيا طرابلس الشمال الأفريقي ومنشيتها، طبيعة منطقة طرابلس، فزان ومستقبلها، المستوى الحالي للأبحاث حول الصحراء الليبية وتبسني المسطح الصحراوي الليبي والبطنان، مدينة طرابلس الجديدة تماماً في دواخل طرابلس، محاضرة عن منطقة طرابلس وسكانها.

أما عن كتاب طرابلس مطلع القرن العشرين[1] الذي نورد منه العديد من الفقرات يعتبر وثيقة مهمة في تاريخ مدينة طرابلس الاجتماعي والاقتصادي في العقد الأول من القرن العشرين وصف فيه المدينة وصفاً دقيقاً وحرص أن يقدمها كمدينة عربية إسلامية لم تخضع كثيراً للمؤامرات الأوروبية، لأنه كان يرى أن هذه الصورة ستتغير جذرياً.

كما وقف بانزة أيضا عند العادات والتقاليد والحرف وجميع ما يعرف بالمدينة وإضافة إلى ذلك مجموعة من الصور والرسوم التخطيطية ونختار من كتابه المكرس لمدينة طرابلس مجموعة من المواضيع التي تتناول طبوغرافية

---

[1] ـ انه يضم دراسة د . عماد الدين غانم عن بانزهمع ترجمة عن الألمانية لكتابه بعنوان طرابلس وصدر عن مركز جهاد الليبيين بالعنوان المذكور أعلاه في 1998

المدينة وعمرانها إضافة إلى قضايا أخرى يتميز بها ويبدأ بوصف المدينة عندما وصلها بحراً.

" من بعيد يبرز من خلال أشعة الشمس الوردية شاطئ منخفض ذو جدران بنية مائلة إلى الحمرة تعلوها غابة خضراء من النخيل تبرز منها بيوت بيضاء وأعمدة السواني وفي نهاية الشريط تظهر أبنية مكبس الحلفاء الرمادية اللون وضاحية الظهرة متعددة الألوان، وهي هضبة تقع في سفحها أشجار الحديقة العامة السقيمة والشكنة الصفراء هنا تبدأ مدينة طرابلس القديمة. أن المدينة الشرقية الجنوبية تختلف عن المدينة الشرقية الشمالية أكثر من اختلاف المدينة الأوروبية الجنوبية عن المدينة في وسط أوروبا. ففي الشمال أسطحه من الآجر الأحمر وبساتين خضراء وهضاب أما في الجنوب فالأرض جرداء وتتناثر هنا وهناك أشجار نخيل وأسطحه بيضاء مستوية.

وصف بانزة المدينة وصفا دقيقا إضافة إلى انشغاله بتعلم اللغة العربية فقام بإعداد مخطط المدينة ولما لم يكن مثل ذلك المخطط متوفرا وقتذاك فقد أراد بد دراسته لتحقيق ذلك وتتبع تخطيط المدينة الجديدة بالمدينة القديمة وكذلك سوق الثلاثاء وضاحية الظهرة وكذلك شارع الشط والمنشية.

إن وضع مخطط لها، لا يريد أن ينسجم تماماً مع الصورة الخارجية المعلقة للمدينة القديمة ولا مع صورتها الداخلية، فالمدينة الجديدة تتوجه على شكل مسماري نحو المدينة القديمة وبذلك فإن طابع المدينة خارج سور يختلف اختلافا هائلا عنه داخل السور فهنا خارج السور توجد شوارع عريضة يسرى الغبار فيها عبر صفوف بيوتها التي تلفحها الشمس الوهاجة وهنا أيضا تبحث

دون جدوى عن ظل لطيف وقوس ظريف وزوايا. إن البيوت الكبيرة تفتح كثيرا من الأبواب والنوافذ على الشارع.

*** سوق الترك:**

عبر قوس منخفض، نجد حجرات منخفضة صفراء مثل الخشب حيث يقوم خياطون يهود بتفصيل السراويل والفرامل والسترات ويطرزون الفرملة بخيوط فضية تطريزاً كثيفاً والى جانبهم يدق الاسكافيون الجلد على سندان رشيق كي تلين، وقد علقت على الجدران دزينات من الأحذية الجلدية التي يطوى كعبها عادة على النعل ولذلك فإن هذا الجزء يعلو عن لطرف الخلفي وعلى اليمين ويسار سوق الترك دكاكين { يسمى واحدها مخزنا} طابعها ليس شرقيا تماما وقد وضعت أمامها أكياس مفتوحة من الأعلى وهي مليئة بالبازلياء والرز والدقيق والبرغل والبندق والجوز واللوز إلى جانب ذلك النحاسون الأرمن في سوق النحاس حيث ترى الصناع الملطخين بالسواد وشبه العراة وكير النفخ الذي يقوم عليه ومنظر الجمر المتقد والسندان الضخم والمطرقة الحديدية الصدقة، وفي هذه السوق تنبض الحياة التجارية في طرابلس ممتازة بأقصى نشاطها إنها ذات طابع شرقي أصيل إلى حد بعيد. أن معظم البيوت في السوق كانت على مستوى الأرض، وهى مكونة من دكاكين تنفتح على الشارع ومن فنادق في الجهة الداخلية، أي إنها تمثل مأوى البضائع والمسافرين. أما الزقاق فمسقوف بألواح تتوسطها فتحة يبلغ عرضها أكثر من متر تعرش عليها أغصان العنب المورقة وتتدلى منها في الصيف عناقيد العنب وإن السقف الذي يصد لهب أشعة الشمس العمودية يساعد على تبريد نسبي للجو وينشر ظلاً كثيفا محبباً للنفس

ويشعر بالراحة التامة من يدخل إلى الشارع المسقوف قادماً من طريق عريض مكشوف تتعرض أرضه وجدرانه إلى أحزمة الضوء وأشعة الشمس التي تزيد وطأة الحرارة على الإنسان، وفي سوق الترك الظليل يتحرر المرء من هجمات أشعة الشمس ومن تحرشات سولاس أيضا ويستطيع أن يجلس بطمأنينة في المقاهي الواقعة في طريق الباب ويتأمل منه تيار الناس الجذاب الذي يتدفق أمام ناظريه.

أمام المدخل الملون لجامع قرجى ومئذنته العالية { هي الوحيدة في طرابلس التي تحمل طابقين } ينعطف الطريق يميناً إلى زقاق ضيق يستمر حتى السور الغربي للمدينة وفي مقدمته يبدأ حي اليهود { الحارة } ونلاحظ إن بعد ظهر الجمعة (مساء اليوم السابق ليوم السبت من اليوم السابع من الساعة السادسة وحتى السادسة من بعد ظهر السبت) لا يلمس اليهودي النار ولا النقود وجميع دكاكينهم مغلقة ولهذا خرج الجميع إلى الشارع فإن الحياة في هذه اللحظة في الحارة بالغة التنوع والحركة وهذا لا يحدث إلا يوم السبت.

وإن سوق الحارة زقاق ضيق جدا ويمتد من الباب الجديد في خط مستقيم باتجاه الميناء إن حانات خمر النخيل { اللاقبي} وإن الزبائن من المسلمين يجلسون في هذه الحجرات الوسخة في غرب المدينة في حين أنه في الجزء الشرقي تتلاحق دكاكين القماش اليهودية الواحد بالأخر إلى أن تعترضها عبارة مسقوفة تؤدي إلى تقاطع طرق في زوايا البيوت بقايا أعمدة قديمة أدرجت فيها وتبعاً لذلك يدعى الشارع الذي يؤدي إلى الجنوب الشرقي شارع الأربع عرصات. إن سوق الحارة يفصل الحارة الكبيرة من النصف الجنوبي من المدينة حيث يسكن

في الغالب المسلمون. وحول الباب الجديد يسكن يهود في الحارة الصغيرة وهي تقع إلى الجنوب قليلاً.

كما يوجد ميدان مكشوف تتفرع منه عدة شوارع ويدعى هذا الميدان سوق الخبزة تسوده في كل وقت حركة بسيطة عند الحائط الشرقي بجوار المقبرة يجلس تحت أشعة الشمس القائظه ظهرا وعصراً شحاذون يرتدون الخرق. وكما ينشر بعض باعة الأسلحة سلعهم وحتى **1906** أو **1907** كان المدخل إلى المدينة هو باب المنشية وقد أزيل الآن لكونه ضيقاً ويعيق حركة المرور إلا أنه كان مزخرفا وأمامه إلى اليسار كانت ثمة طاولات لمجموعة من الباعة الذين يتاجرون بالرصاص والخردة والمسامير والبارود وحيث يباع سرا وكانوا يطلقون عليه اسم {كسكسى} تحاشياً للفت الأنظار. بينما يبيع الآخرون وهم في الغالب من بلاد السودان الغربي جميع أنواع العطور وزيت الورد المقلد والخيوط والإبر وما شابه من ذلك.

أما عن الدكاكين المجاورة تعرض سلع مجدولة من أوراق النخيل جدلاً رديئا يجعلها سريعة البلي، كما تباع هنا الجرار الفخارية والشيت المطبع والبيارق الحمراء والصفراء التي توضع على المزارات والمحاريث الخشبية وميازيب فخارية توضع على سطوح البيوت بحيث يجرى فيها ماء المطر من السطح عبر الجدران إلى الصهريج وتباع أيضا سلع أخرى مخصصة لاستهلاك سكان القرى والبدو.

وعلى الجانب الغربي والجنوبي من سوق الخبرة تقوم بعض المقاهي المنخفضة التي يصطف بعضها بجانب بعض ويجلس فيها عرب وليبيون. والبيوت الواقعة

جنوبي سور المدينة ليست أبنية سكنية بل فنادق وتكون الفندق من مربع جدرانه الخارجية عديمة النوافذ تماماً، بينما يتوسطه فناء واسع تحيط به غرف صغيرة تنفتح على جهة واحدة أو أكثر وفي هذه الفنادق تحط القوافل فيخصص الفناء للجمال والحمير والخيول لتبقى الغرف من نصيب المسافرين والبضائع وفنادق طرابلس تتألف من جدران مطلية باللون الأبيض وتخلو من جميع أنواع الزخرفة وليس من فنادق تقلل الزخرفة بعضاً من رتابتها إلا في المدينة القديمة وحدها وفي البداية كانت تسود بعض فنادق ذات جدران أربعة جرداء وتبعا لحاجة القوافل التي كانت تحط هنا فقد تنالي تشييد حجرات خشبية للناس الذين يقوم رزقهم على ما يحصلونه من القادمين من الدواخل. فقد بنيت الشكنة العسكرية ثم انسحب العديد من الضباط بعد بنائها إلى خارج المدينة القديمة وبعدئذ وجد كثيرون أن تحمل الصيف القائظ خارج السور أيسر مما هو عليه الحال في الأزقة الضيقة من المدينة القديمة.

وعلى هذا الأساس سرعان ما نشأت المدينة الجديدة في طرابلس حوالي نهاية القرن التاسع عشر { يقصد بذلك ما كان يطلق عليه وقتئذ المنشية } وتتكون المدينة الجديدة عن مجموعة شوارع طويلة ينطلق من سوق الخبزة إلى دواخل الواحة وهي ترتبط فيها بينها بعدد من الطرق الضيقة وكذلك فإن طابع المدينة خارج السور يختلف اختلافاً هائلاً عنه داخلا السور. فخارج السور توجد شوارع عريضة يسرى الغبار عبر صفوف بيوتها التي تلفحها الشمس الوهاجه، أما البيوت فإنها تفتح كثيراً من الأبواب والنوافذ على الشارع ناسية بذلك حشمتها الشرقية المفرقة في القدم ليست المدينة الجديدة في الأصل مدينة

تجارية، توجد في شوارعها دكاكين تجتذب الناس للشراء بل هي في الدرجة الأولى مكان للناس الذين ينشدون أن يعيشوا حياة أهدأ وأمتع، موضع للمخازن والفنادق. وفيما عدا ذلك فإنها تتخذ معبراً بين الدواخل والمدينة القديمة وعلى كل حال فإن هناك على مقربة من سوق الخبزة عدداً كافياً من الدكاكين التي تختلف في تصميمها عن الدكاكين داخل المدينة القديمة وقد أقيمت الفنادق هنا محاطة بمجموعات من الأعمدة تطل عليها حجرات مستطيلة جعل بعضها دكاكين وأكثرها ورشات. ففي المقدمة توجد حجرات الحدادين المسودة أمامها تقف خيول فلاحي الواحة والدرك وعلى الجانب الآخر من الشارع العريض تختبئ تحت الأعمدة المتسخة فتحات مظلمة لحجرات حدادي الأسلحة (الأسطى). وقرب نهاية الطرف الجنوبي للشارع تطل الواجهة الطويلة لمبنى مدرسة الفنون والصنائع. وفي الجانب الجنوبي الشرقي من المدينة الجديدة تظهر المدخنة الحديدية لمكبس الحلفا لكن على مسافة بعيدة فوقه يرتفع بناء المطحنة الإيطالية الضخم التي أنشئت عام **1909** وقد خيل لي في البداية أنها حصن وإن موقعها يطل على الشكنة.

*** سوق الثلاثاء (الثلات):**

يمكن مشاهدة سوق الثلاثاء من مبنى السراي على أفضل وجه إن شكله شبيه بمغرفة إنه يمتد ويفصل مياه حوض المرفأ الزرقاء في الأماكن العميقة والخضراء حيث الماء ضحل، عن فنادق المدينة الجديدة البيضاء، حيث يتدرب جنود المشاة العثمانيون، ويبدو الفلاحون والبدو ودهشتهم.

أما عن الطرف الشمالي الضيق يمكن شراء بعض السلع الخضراء البسيطة مثل علف الحيوانات الشمس المشرقة تتحول تدريجيا فوق السطح الأصفر وما من أحد يرغب بالسير بعد ذلك فوق الرمل. فلنشاهد أولاً سوق المواشي، على جدار الحديقة العامة يقوم سوق الخيل تبعا للعادة القديمة وهي تلوح بذيلها وعلى شاطئ البحر مقابل سوق الخيل يقع سوق الجمال وأمام رصيف الميناء حيث تشحن بالات الحلفا الصفراء والخضراء وإلى الغرب من سوق الخيل تمتد سوق الحمير، أما باعة البيض فقد اتخذوا مكانهم على الطريق المؤدي إلى الثكنة، حيث يعرض اليهود البيض في صناديق صغيرة معبأة بالحبوب، بينما يجعله الفلاحون في صرر رخوة وهنا أيضا تباع الحصر بمختلف الأحجام وتسمى الكبيرة خطية والصغيره حصير، كما تباع هنا الفراريج والحمام وأرانب مصر. وفي الخريف يعرض السمن في علب طويلة قليلة الارتفاع وغطاؤها من قماش يمكن ربطه وفكه بيسر. وفي وسط السوق تنتشر أكوام الخضار وأكشاك بيعها صفوفاً وتختلف أنواع هذه الخضار باختلاف الفصول والسلعة الوحيدة المتوفرة دائما هي الليمون { الليم القارص } والبصل والثوم والبقدونس و البطاطا والبطيخ الأحمر(الدلاع). على أن الأخير يطاف به في الشوارع محمولا على الحمير ويباع حين يكون للمشترى الحق في أن يشق { يرشم} الدلاعه للتأكد منها.

أما في فصل الشتاء تبدو الخضار صغيرة ولا تعود السوق إلى حيوتها إلا في فصل الربيع بعد انقضاء موسم أمطار الشتاء حيث يختفي البرتقال يفسح المجال لبروز رؤوس القنبيط البيضاء وحزم السبانخ الخضراء والبازلاء والفاصوليا

وغيرها من الخضار. أما غربي سوق الخضار تقوم هياكل دكاكين الجزارين المسلمين وفي الركن الجنوبي من سوق الثلاثاء واتخذت جماعة منفرة سيئة السمعة موضعا لها. وهناك جرار فخارية كبيرة، وهناك جرار فخارية كبيرة على طاولات وصفائح مليئة بزيت الزيتون وتغلي زبدة الغنم في حلل كبيرة على نار فحم الخشب لكي تغدو سمناً. وخلف جدران من القماش ينفصل التجار بوجاهه عن عامة الشعب وقد اتخذوا الحولى الأبيض وسجاد جربة واليرنس المقصب بألوان بنية صفراء وعادة ما يرتدي في فصل الشتاء فقط، وتوجد أقفاص من الدجاج المصنوعة من سعف النخيل ومناخل ذات إطار خشبي، جذور نباتات طبية كما يجلس بعض الناس تحت خيمة صغيرة (زريبة) يتكون هيكلها من أغصان النخيل ويغطي ببعض الخزف أو خيش الأكياس.

في الطرف الشمالي الغربي من سوق الثلاثاء تباع حبال بنية وخضراء وصفراء مجدولة من الحلفاء، وجرار رمادية وحمراء يرشح الماء من مسامها فيصبح أبرد من حرارة الهواء وفيها خلا ذلك توجد طناجر من الفخار.

وقد استمر سوق الثلاثاء على النحو نفسه حتى الأسبوع الأخير من سبتمبر **1911** فقد كان يتوافد عليها من جميع نواحي البلاد فلاحون وبدو ويجيئون حاملين على الجمال ثمار نشاطهم وغالبا ما كانوا يستغرقون 3 أيام في الطريق ويمكثون يوماً كاملا في مدينة طرابلس العالمية يجلسون في المقاهي ويشربون ويدخنون ثم يسيرون أو يركبون لمدة ثلاث أيام أخرى عائدين إلي البيت لإعداد بضاعة جديدة ينطلقون بها إلى المدينة ثانية، وهم في أغلب الأحيان لا

يكسبون من هذه الرحلة التي تستغرق سبعة أيام أكثر من مارك واحد والآن أصبح الوضع مغايرا في سوق الثلاثاء.

إن البلاد أصبحت مغلقة والواحة مدمرة والقسم الأعظم من المواد الغذائية لا يأتي من البلاد بل من خارجها. في سوق الثلاثاء يصح صوت صفير القاطرات التي تسير حتى عين زاره وصفير جنود البرساليري ذوى القبعات العريضة والقبضات الفاسية.

محمد يوسف الكويتي

الفهرس العام

طرابلس في نصوص عربية وأوربية

